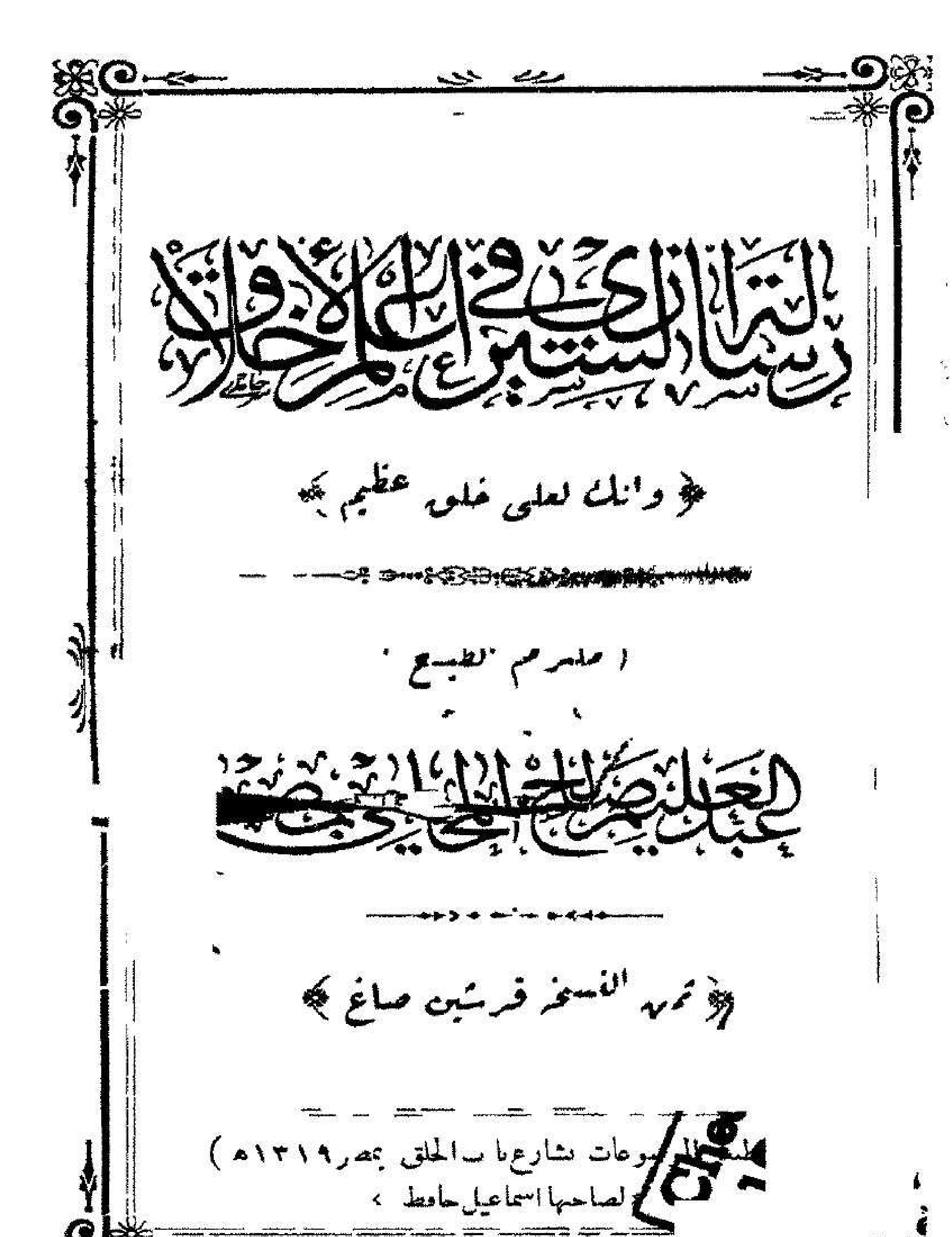


رسالة التبر السني في علم الأخلاق

﴿ وانك لعلى خلق عظيم ﴾

التزم الطبع

عبد العليم صالح الجاحي [redacted]

﴿ ترجمه الأسعد قرشين صاغ ﴾

(مطبعة الموسوعات بشارع باب الخلق بمصر ١٣١٩ هـ)
لصاحبها اسماعيل حافظ

على ما في القاموس . وفي الكشاف للعلامة الزمخشري في تفسير قوله تعالى « وانك لعلى خلق عظيم » استعظم خلقه لفرط احتماله المضاة من قومه وحسن مخالقته ومداراته لهم وقيل هو الخلق الذي أمره الله تعالى به في قوله « خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين » وعن عائشة رضى الله عنها ان سعيد ابن هشام سألها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كان خلقه القرآن ألست تقرأ القرآن « قد أفلح المؤمنون » اه وعرّف ابن مسكويه الخلق بما نصه

الخلق حال للنفس داعية لها الى أفعالها من غير فكر ولا روية . وهذه الحال تنقسم الى قسمين : منها ما يكون طبيعياً من أصل المزاج كالانسان الذي يحركه أدنى شئ نحو غضب ويهيج من أقل سبب وكالانسان الذى يجبن من أيسر شيء كالذي يفزع من أدنى صوت يطرق سمعه أو يرتاع من خبر يسمعه وكالذي يضحك ضحكاً مفرطاً من أدنى شيء يعجبه وكالذي يغتم ويحزن من أيسر شيء يناله * ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدرب وربما كان مبدؤه بالروية والفكر ثم

يستمر عليه أولاً فأولاً حتى يصير ملكة وخلقاً . ولهذا اختلف القدماء في الخلق فقال بعضهم الخلق خاص بالنفس غير الناطقة وقال بعضهم قد يكون للنفس الناطقة فيه حظ . ثم اختلف الناس أيضاً اختلافاً ثانياً فقال بعضهم من كان له خلق طبيعي لم ينتقل عنه . وقال آخرون ليس شيء من الاخلاق طبيعياً للانسان ولا نقول انه غير طبيعي . وذلك انا مطبوعون على قبول الخلق بل ننتقل بالتأديب والمواعظ أما سريعاً أو بطيئاً . وهذا الرأي الاخير هو الذي نختاره لانا نشاهده عياناً ولان الرأي الاول يؤدي الى ابطال قوة التمييز والعقل والى رفض السياسات كلها وترك الناس همجاً مهملين والى ترك الاحداث والصبيان على مايتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم وهذا ظاهر الشناعة جداً

وأما الرواقيون فظنوا أن الناس كلهم يخلقون أخياراً بالطبع ثم بعد ذلك يصيرون أشراراً بمجالسة أهل الشر والميل الى الشهوات الرديئة التي لاتقمع بالتأديب فينهمك فيها ثم يتوصل اليها من كل وجه ولا يفكر في الحسن منها والقبيح *

وقوم آخرون كانوا قبل هؤلاء ظنوا أن الناس خلقوا من الطينة السفلى وهي كدر العالم فهم لاجل ذلك أشرار بالطبع . وانما يصيرون أخياراً بالتأديب والتعليم الا أن فيهم من هو في غاية الشر لا يصلحه التأديب وفيهم من ليس في غاية الشر فيمكن أن ينتقل من الشر الى الخير بالتأديب من الصبا ثم بمجالسة الاخيار وأهل الفضل * وأما جالينوس فانه رأي أن الناس فيهم من هو خير بالطبع وفيهم من هو شرير بالطبع وفيهم من هو متوسط بين هذين . ثم أفسد المذهبين الاولين اللذين ذكرناهما * أما الاول فبأن قال ان كان كل الناس أخياراً بالطبع وانما ينتقلون الى الشر بالتعليم فبالضرورة أما أن يكون تعلمهم الشرور من أنفسهم واما من غيرهم . فان تعلموا من غيرهم فان المعلمين الذين علموهم الشر أشرار بالطبع . فليس الناس اذا كلهم أخياراً بالطبع . وان كانوا تعلموه من أنفسهم فاما أن يكون فيهم قوة يشتاقون بها الى الشر فقط فهم اذاً أشرار بالطبع وأما أن يكون فيهم مع هذه القوة التي تشتاق الى الشر قوة أخرى تشتاق الى الخير الا أن القوة التي تشتاق

الى الشر غالبة قاهرة للتي تشتاق الى الخير وعلى هذا أيضاً يكونون أشراراً بالطبع

وأما الرأى الثاني فانه أفسده بمثل هذه الحجة . وذلك انه قال ان كان الناس أشرار بالطبع فاما أن يكونوا تعلموا الخير من غيرهم أو من أنفسهم ونعيد الكلام الاول بعينه * ولما أفسد هذين المذهبين صحح رأي نفسه من الامور البينة الظاهرة . وذلك انه ظاهر جداً أن من الناس من هو خير بالطبع وهم قليلون وليس ينتقل هؤلاء الى الشر ومنهم من هو شرير بالطبع وهم كثيرون وليس ينتقل هؤلاء الى الخير . ومنهم من هو متوسط بين هذين وهؤلاء قد ينتقلون بمصاحبة الاخيار ومواعظهم الى الخير وقد ينتقلون بمقاربة أهل الشر واغوائهم الى الشر

وأما ارسطوطاليس فقد بين فى كتاب الاخلاق وفي كتاب المقولات أيضاً أن الشرير قد ينتقل بالتأديب الى الخير . ولكن ليس على الاطلاق لانه يرى ان تكرير المواعظ والتأديب وأخذ الناس بالسياسات الجيدة الفاضلة لابد أن

يؤثر ضروب التأثير في ضروب الناس فمنهم من يقبل التأديب ويتحرك الى الفضيلة بسرعة ومنهم من يقبله ويتحرك الي الفضيلة بابطاء . ونحن نؤلف من ذلك قياساً وهو هـذا : كل خلق يمكن تغيره . ولا شيء مما يمكن تغيره هو بالطبع . فاذا لا خلق ولا واحد منه بالطبع . والمقدمتان صحيحتان والقياس منتج في الضرب الثاني من الشكل الاول . اما تصحيح المقدمة الاولى وهي ان كل خلق يمكن تغيره فقد تكلمنا عليه وأوضحناه وهو بين من العيان ومما استدللنا به من وجوب التاديب ونفعه وتأثيره في الاحداث والصبيان ومن الشرائع الصادقة التي هي سياسة الله الحقة * وأما تصحيح المقدمة الثانية وهي انه لا شيء مما يمكن تغيره هو بالطبع فهو ظاهر أيضاً . وذلك انا لا نروم تغيير شيء مما هو بالطبع أبداً . فان أي احد لا يروم أن يغير حركة النار التي الى فوق بان يعودها الحركة الي أسفل ولا أن يعود الحجر حركة العلو يروم بذلك أن يغير حركة الطبيعة التي الي أسفل . ولو رامه ما صح له تغيير شيء من هـذا ولا ما يجري مجراه أعني الامور التي هي بالطبع فقد صحت المقدمتان وصح

التأليف في الشكل الاول وهو الضرب الثاني منه وصار برهانا *
فاما مراتب الناس فى قبول هذه الآداب التى سميناها خلقا والمسارعة الى تعلمها والحرص عليها فانها كثيرة وهي تشاهد وتماين فيهم وخاصة في الاطفال فان أخلاقهم تظهر فيهم منذ بدء نشأتهم ولا يسترونها بروية ولا فكر كما يفعله الرجل التام الذي انتهى في نشوءه وكماله الى حيث يعرف من نفسه مايستقبح منه فيخفيه بضروب من الحيل والافعال المضادة لما في طبعه : وانت تتأمل من اخلاق الصبيان واستعدادهم لقبول الادب أو نفورهم عنه أو مايظهر في بعضهم من الفحة وفى بعضهم من الحياء وكذلك ماتري فيهم من الجود والبخل والرحمة والقسوة والحسد وضده ومن الاحوال المتفاوتة ماتعرف به مراتب الانسان في قبول الاخلاق الفاضلة وتعلم معه انهم ليسوا على رتبة واحدة وان فيهم المتواني والممتنع والسهل السلس والفظ العسر والخير والشرير . والمتوسطون بين هذه الاطراف فى مراتب لاتحصى كثرة واذا أهملت الطباع ولم ترض بالتأديب والتقويم نشأ كل انسان على سوم طباعه وبقى عمره كله على الحال التى كان عليها

فى الطفولية وتبع ماوافقه فى الطبع اما الغضب واما اللذة واما الزعارة وإما الشره وإما غير ذلك من الطباع المذمومة اهـ

وعليه فان الخلق حال قائمة بالنفس تنبعث عنها إما الفضيلة اذا تهذبت النفس وترتب على القواعد الاساسية الدينية ولازمت الحدود التى حددها الله سبحانه وتعالى للبشر على لسان رسله وأنبيائه من اتباع التعاليم الشرعية التي اذا صارت ملكة للنفس متأصلة سارت بصاحبها في طرق السعادة وردعته عن الغواية

وإما الرزيلة اذا تركت النفس وشأنها مهملة سائمة لم ترد حياض التعاليم لترتشف الفضائل وتغترف المعارف فتستشفى غلة الجهل وتطفأ نيران الشهوات البدنية المفطورة عليها الاجسام الحيوانية . لان الجسم لما كان مكوناً من العناصر المادية فهو مجبول على الميل اليها بحكم الطبيعة وهو لايسترسل فى هذا الميل ولاينساب الى الشهوات الا اذا ضعفت فيه قوي النفس العاقلة وقعدت به قوائم الروح المدركة . هنالك يتغلب الجسم ويعظم سلطانه وتقف أمامه النفس صاغرة مهانة يقلبها كيف يشاء ويذهب بها فى سبيل اللذات البدنية كل مذهب حيث

لاشعور بالملاذ الروحية . وأي صغار وهوان للنفس اكثر من أن تعدم وظائفها فى هذا العالم بفقدان قوة الارادة والشعور بان عليها واجبا تؤديه نحو السعادة وفرضا تقوم به تجاه المجد وانى يكون لها ذلك وهى عارية من ثياب العرفان متجردة من وشاح الفضائل تبصر الذل في سبيل الشهوات عزا ونجارا والضيم في باب الاهواء مجدا وفخارا

أو كيف يتسنى لها أن تنهض بذويها وتتسنم باصحابها سنام المجد الا اذا شعرت باللذات الروحية وذاقت حلاوتها وأشرقت من سماء المعارف لتبديد تلك الغياهب غياهب الاجسام الكثيفة التى هوت بالانفس في مهاوى الضعة والاحتقار وتردت بها فى حفر العار واوردتها موارد الشنار حيث لاعظة ولااعتبار . وهذه هي النفس البهيمية التى ليس لها أقل سيطرة على الجسم فلا تتأثر بالألم الا كما تتأثر البهيمة عما ينالها من ضروب الأذى . تأثر حيوى اقتضته الطبيعة

والنفس العاقلة هى التى تضاد الاجسام في جميع أفعالها وخواصها . وهى سر الاهى أودعه الله في الانسان ليسيطر

به على الكائنات في هـذا العالم فيجب اذا أن لا يضاع ذاك السر المصون وأن لا يترك هذا النور الرباني أسير الجسم الكثيف . (وقد شبه الحكما من أهل سياسة نفسه لعاقلة برجل معه ياقوتة حمراء شريفة لاقيمة لها من الذهب والفضة جلالة ونفاسة وكان بين يديه نار تضطرم فرماها في حباحبها نخسرت نخسر ضروب منافعها . وقد قال أفلاطون ان النفس العاقلة هي بمنزلة الذهب في اللين والانعطاف وأما البهيمية فهي بمنزلة الحديد في الصلابة والامتناع) . بمعني أن النفس الناطقة قابلة للتربية والتهذيب وان تجعل صالحة للاعمال النافعة في سعادة الدارين

واذا كانت العلوم والمعارف هي من وسائل التهذيب ومقتضيات التربية فما لاجدال فيه أن النفس لا تتهذب بمجرد استيعابها العلوم فقط فان العلم انما ينفي ضده وهو الجهل والعلم فضيلة ناقصة اذا لم يقترن بالعمل . وكما انه ينفي الجهل كذلك العمل ينفي الكسل ولا يدع الانفس تحوم حول الملاهي والشهوات البدنية لاشتغالها به عما عداه من البطالة والميل الى الراحة ومتى أدركت النفوس لذة العمل والتعب المتواصل

فى سبيل ترقية الحالة الاجتماعيـة احتقرت كل شهوة بدنيـة وعظمت لديها اللذايذ الروحية التى لايشاركها فيها مشارك من نحو الفخار والمحمدة والشكران . وكما ان الشخص يسمن من فمه كذلك يسمن الانسان من أذنيه عند سماعه أنواع المحامد والثناء والتمجيد تلقاء الافعال الجميلة والاعمال الجليلة . والنفس الانسانيـة ميالة الى حب الاحترام والتجلة ولـكن النفوس البهيمية تطلب ذلك من طريق الماديات لا من طريق المدارك كمن يطلب احترام نفسـه لأجل ماله الذي لاينتفع به فى فعل الخيرات واسداء المبرات

وما زال الناس قديماً وحديثاً يعظمون الرجال بعظيم أفعالهم ويجلونهم بجليل أعمالهم (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله) وقال عليه الصلاة والسلام (من أسرع به عمله لم يبطيء به حسبه ومن أبطأ به عمـله لم يسرع به نسبه) . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنـه لرجل . من سيد قومك قال أنا قال كذبت لو كنت كذلك لم تقله . يريد بذلك أن الرجل يدعى السيادة بغير عمل لاسودد أوانه منّان بعمله وقيل لقيس بن عاصم بم

سودك قومك قال بكف الاذى وبذل الندى ونصرة المولى وسأل عبد الملك بن مروان روح بن زنباع عن مالك بن مسمع . فقال لو غضب مالك لغضب معه مائه الف سيف لا يسأله واحد منهم لم غضبت . فقال عبد الملك هذا والله السودد . ومالك بن مسمع انما ساد بحسب عشيرته له . فالسيد المحترم فى قومه هو الذى يكف عنهم الاذى ويرفع الألم الذى يعرض لهم تجاه مطالب الحياة ويسير بهم في طرق السعادة فيكتسب المجد من طريقه ويدخل المفاخر من أبوابها

وأفضل الخلق من بني الورى رجل
تقضى علي يده للناس حاجات
قد مات قوم وما ماتت مكارمهم
وعاش قوم وهم فى الناس أموات

والفاضل هو الذى يأتي الفضيلة لذاتها لا لغرض مكافأة ولا مجازاة بل لمحض المروءة وابتغاء الانسانية . ولذلك كان أعضاء الجمعيات الخيرية فى العالم أعظم الناس قدراً وأرفعهم بين الأنام ذكراً ان صحت نواياهم وحسنت طواياهم وانهم

لا يريدون جزاء على أعمالهم نحو الانسانية . وكذلك العلماء الذين وقفوا حياتهم على خدمة النوع الانسانى وترقية مداركه بنشر التعاليم والتآليف النافعة حتى استضاء العالم بنبراس هديهم وأشرقت الارض بنور ارشادهم وقد خلد لهم التاريخ ذكراً حسناً لا يمحوه كر الدهور ولا مر العصور اذ لولاهم وما قاموا به من التآليف لظل العالم يتخبط في غياهب الجهل ويتردى فى مهاوى التوحش ومن نظر الى التآليف التى لا تعد ولا تحصى والتى خطتها أنامل أولئك الأسلاف وأودعوا بطونها فرائد العلوم ولآلئ العرفان علم أن أولئك ما كان يميل بهم أقل ميل الى شهوة بدنية ولا تهزهم هزة حيوانية . سوى حفظ حياة قومها بلغة استعانوا بها على نشر العلوم والفضائل فكانوا منبع المجد ومصدر الفخار ومثال الكمال . ولقد كثرت فى هذا الايام شكوى العقلاء من تأخر المسلمين فى مضمار العلوم والمعارف وانبرت اقلام الكتاب للمسابقة فى هذا الميدان وهم يجاهدون الآن أي جهاد فى مشارق الارض ومغاربها على لسان الصحف السيارة وقامت مؤتمرات لهذا الغرض أوسعوا فيها مجال الجدال

والمناقشة فى سبيل التربية الصحيحة والتهذيب القويم سعياً وراء ترقية الافكار وتثقيف العقول وتنوير المدارك وكل يبدى رأياً ويختلف عن الاخر اختلافا والكل متفقون على أنه لاتربية الا بالعلوم ولاتهذيب الا بالمعارف . وأني يكون ذلك وقد فقدت من بيننا رجال التأليف وقل عندنا من يقوم بنشر التعاليم الصحيحة المجردة عن السخافات التى أودت بالناس الى مهاوى الهلكة وأوردتهم موارد المذلة والعار .

أو كيف يحصل والعلماء فى شغل بالماديات عن القيام بوظيفتهم من نشر التآليف النافعة الملائمة للاحوال المصرية القومية وفى سهو بالوظائف عن ارشاد الناس الى امر معاشهم ومعادهم بالطرق الشرعية والاساليب المقومة للاخلاق فقد كثر تطلع الناس الى التهافت على الشهوات وجر ذلك الى الوقوع فى سيء المعاملات وتمكنت العادات الضارة أي تمكن ومامن سبيل الى قلع جذورها الا التربية

ومن يقوم بالتربية سوى العلماء كما قام علماء العصور السابقة بها فرفعوا صروح المجد وشادوا أركان الفخر وحلوا بسبب

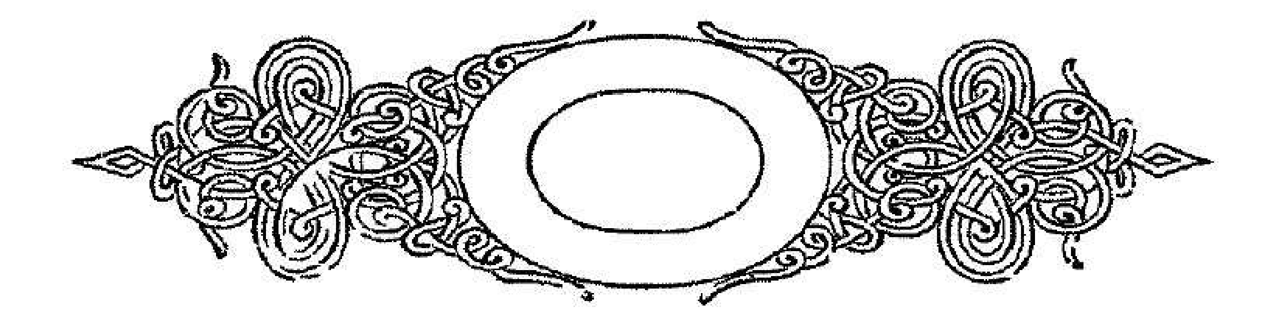
ذلك عند الملوك والامراء لمحل الاعظم . وعبثاً تحاول امة النهوض من رقدتها بغير أن تأخذ العلماء وقاده الافكار بيدها ولو أن العلماء قاموا بنشر التربية بين الناس كما تقوم الصحف السيارة بها الآن بيننا لصلح الحال وتحققت الامال ولكنهم أهملوا وظيفتهم فاهملوا الامة

وهذه رسالة وضعها الامام الشيرازى فى علم الاخلاق صغيرة الحجم كثيرة النفع تألفها الاحداث ولا تأنفها الشيوخ حملني على نشرها ماهو مشاهد بيننا من اعوجاج الاخلاق عن جادة التقويم وعدم الهداية الى الصراط المستقيم عسى أن تحل من النفوس محلا فتزكيها والله المسؤل ان يوفقنا الى صالح الاعمال لخدمة الاوطان فى ظل مولانا أمير المؤمنين السلطان ﴿عبد الحميد الثانى﴾ حرس الله ملكه وايد نصره وأدم مولانا الخديوى المعظم (عباس حلمى الثانى) كعبة الامال على مر الايام والليال

(عبد العليم صالح)
(المحامى)

رسالة الرازي في علم الأخلاق

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾



(بسم الله الرحمن الرحيم)

ان أولى ما نطق به اللسان * وثبت وجوبه بسواطع البرهان * الحمد لمن يستحق الحمد لدوام المجد والعلى * والشكر لمن يستوجب الشكر لتمام النعم والآلاء * الذي ظهرت عجائب مصنوعاته * وبهرت غرائب مبدعاته * وأوجد الخلائق بكمال قدرته * ودل ببدائع صنعته على لطائف حكمته * وفضل الانسان على البرية بالعقل الراجح * والعمل الصالح * حتى تبصر نتائج الحزم * وتوتر مناهج العزم * ووفقه للترقي في مدارج الكمال * والتحلي بصوالح الاعمال * حتى يستضيء بنور النجاح * ويستفيء بظل الفلاح * نحمده حمداً يقتضي تضاعف الحسنى * ونشكره شكراً يستدعي ترادف النعمى * ونصلي ونسلم على رسوله المصطفى من الابرار * المجتبى من الاخيار * ذي الاخلاق العظيمة * والأعراق الكريمة * محمد وآله خيار الورى * ومنار الهدى * صلوات الله عليه وعليهم أجمعين * أما بعد * فان أشرف العلوم وأعلاها * وأجل المعارف وأولاها *

ما يكون ذريعة للانسان * الى السعادة الابدية * والبهجة الحقيقية * والدرجة القصوى للانسان في السعادة والرتبة العليا له في اللذة والبهجة في الدنيا والآخرة ان يفوز بمعرفة واجب الوجود * وما صدر عنه * على الترتيب الموجود * ولا يمكن وصوله الى ذلك * الا بتزكية الباطن عن الاوصاف المذمومة وتحليته بالاخلاق المحمودة

والعلم الكافل ببيان قواعد التزكية والتحلية هو علم تهذيب الاخلاق المسمى بالطب الروحاني وهو العلم الهادي الى أمثل الطرق وأقوم السبل والمبين لما هو المقصود من إنزال الكتب وارسال الرسل وهو الذريعة الى اقتباس الفضائل واكتسابها والوسيلة لاستجماع كمالات النفس واستيعابها. وهذا مختصر فى هذا العلم كاف فى ضبط أصوله وقواعده واف بربط فروعه وأوبده. جمعت فيه عيون أقوال الحكماء فى مكارم الاخلاق وغررها وشذور أمثال الفضلاء فى محاسن الآداب ودررها وخدمت بتأليفه خزانة كتب المخدوم الاعظم مالك رقاب الامم مولى وزراء الشرق والصين خلاصة سلطان

السلاطين منقذ الخلق من المهالك صاحب ديوان الممالك غياث الورى غيث الندى علم الهدى محمد المحمود فى الملأ الاعلى

وزير هو الاولى من الناس بالعلى

فأولاه رب العرش بالطول ما أولى

لازال منصور الالوية والاعلام مقهور العدى بالابادة والارغام ٠ وهو وان كان أتاه الله فى أصل الفطرة من صواب الرأى ما يغنيه عن استمداد ولا يفتقر فى اقتناء مكارم الاخلاق الى تكميل استعداد وأيده تعالى بالصفات القدسية والكمالات الانسية والقوى الفلكية والملكات الملكية يرى مصالح الملك فى مرآت رأيه بعين الالهام والتوفيق كأنه ينظر الى الغيب من وراء سجف رقيق لكن تكاثر الانوار على المبهمات أنفع ولظلام الشبه أدفع فان مد الوادى من سيل البلغات وفيض الانهار من توالى القطرات ٠ فالمسئول من الله تعالى أن يشرق هذا المختصر فى عليا حضرته بشرف الوصول وان يوقعه موقع القبول وأن يطيل فى العز الدائم بقاه ويديم على أهل الفضل ظلله ونعماه وهو المستعان وعليه التكلان

ورتبت هذا الكتاب مختصراً على ثلاثة أقسام كل قسم منها على فصلين

(القسم الاول) فى الاصول الكلية لعلم الاخلاق

(الفصل الاول منه) فى مقدماته ومباديه

(الفصل الثانى) فى مطالبه ومقاصده

(القسم الثاني) فى الفروع الجزئية لمحاسن الاخلاق

(الفصل الاول منه) فى نصائح الحكماء والآداب النافعة فى جميع الابواب

(الفصل الثانى) فيما يجرى مجرى الامثال السائرة من الكلمات النادرة

(القسم الثالث) فيما يختص بمحاسن أخلاق الملوك وآداب أتباعهم من الخدم والحواشى

(الفصل الاول منه) فى مكارم أخلاق الملوك خاصة

(الفصل الثانى) في آداب الخدم وأسأل الله تعالى توفيق السداد انه رؤوف بالعباد وهو حسبي ونعم الوكيل

(القسم الاول) فى الاصول الكلية لعلم الاخلاق

﴿ الفصل الاول منه فى مقدماته ومباديه ﴾

اعلم أن الانسان له قوى ثلاث احداها القوة العاقلة المدركة للكليات بداية وتسمى نفساً ملكية . الثانية القوة الغضبية الباعثة لدفع المؤذيات وتسمى نفساً سبعية . الثالثة القوة الشهوانية الطالبة للمشتهيات الحسية التى بها بقاء الشخص والنوع وتسمى نفساً بهيمية وهذه النفوس الثلاث متخالفة متعالية والانسان فيها تصرف بالاختيار فان شاء نزل على درجة النفس السبعية مطيعاً لها فصار سبعاً من السباع وان شاء نزل على منزلة النفس البهيمية مطيعاً لها فصار بهيمة من البهائم وان شاء نزل على مرتبة النفس الملكية مستعليا على النفسين الآخرين آمر لهما متصرفا فيهما على وفق العقل والشرع حتى تجرد بجوهرها الروحانى عما يشغلها من العلائق الجسمانية الى مباديها القدسية فانها ان استعلت احدى النفسين الآخريين عليها أكدت علاقتها مع البدن وجذبتها الى العالم الجسمانى فاذا فارقت البدن تألمت

غاية التألم لزوال البدن وما يتعلق به من اللذات الحسية والمشتهيات البدنية ولما استقر في النفس من الهيآت الدنيئة البدنية والصفات السمجة المؤلمة لها وهيئة استيلاء النفس الناطقة على النفسين الآخريين تسمى فضيلة وهيئة استيلائهما على الناطقة تسمى رذيلة. واذا ثبتت هذه الهيئة في النفس واستقرت تسمى ملكة. واذا عرضت ثم زالت بسرعة تسمى حالا. فالخلق ملكة يصدر عنها الافعال الاختيارية بلا روية ثم الافعال الصادرة عنها ان كانت جميلة محمودة عقلا وشرعا فالخلق حسن والا فسيئ. والفضيلة وسط بين طرفي الافراط والتفريط وكل منهما رذيلة كما قيل * كلا طرفي قصد (١) الامور ذميم. وأصول الفضائل أربعة الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة. وأصول الرذائل سبعة الجربزة والبله وهما طرفا الحكمة والتهور والجبن وهما طرفا الشجاعة والشره والجمود وهما طرفا العفة. السابع الجور وهو مقابل العدل لان طرفي العدالة

«١» القصد هنا الوسط بين الافراط والتفريط من قولهم قصد في الامر قصد أي توسط اه

جور [١] وأما فروع الفضائل ولوازمها فلوازم الحكمة الالب وثقابة الرأي وجودة الذهن وسرعة الفهم وما يشبهها ولوازم العفة الحرية والحياء والخيرية والسخاء وما يشبهها . ولوازم العدالة هي جملة هذه اللوازم لانها فضيلة تحصل من تركب هذه الفضائل الملزومة لهذه اللوازم فلوازمها ما يلزمها . وأما لوازم الرذائل فهي مقابلات هذه فلوازم الجربزة الدهاء والشيطنة وما يشبهها ولوازم البله الغباوة والحمق وما يشبهه ولوازام التهور التكبر والترفع والصلف [٢] والقساوة وما يشبههما ولوازم الشره الوقاحة والشرارة والتبذير ولوازم الجمود التحبب والبخل

---

(١) قوله لان طرفي العدالة الخ بيان ذلك أن العدل هو اجزاء الاحكام الشرعية أوالقانونية التي قننها أولوا الدراية على حسب مايلائم الحال والزمان على الافراد بالمساواة فلو فرض أن القاضي بين اثنين تجاوز في الحكم الحد المقنن كان جائراً على المحكوم عليه واذلم يصل الى الحد المقنن كان جائراً على المحكوم له فتبين حينئذ أن الحد الوسط بين هذين الطرفين هو العدل وهواجراء الحكم على وفق القانون اه

(٢) الصلف هو مجاوزة قدر الظرف اه

وأمثالهما ولوازم الجوهري لوازم هذه الرذائل كلها . وأما حدود هـذه الفضائل والرذائل وتعريفاتها فالجملة صناعة نظرية بها يكتسب الانسان معرفة الموجودات على ماهى عليه على حسب الطاقة البشرية والشجاعة مطاوعة القوة الغضبية للقوة العاقلة فى الاقدام والاحجام على مقتضى الرأى الصحيح . والعفة قلة شوق القوة الشهوية الى اللذات البدنية بحيث يسهل عليها الصبر عما يذم عقلا وشرعا . والعدالة هيئة تحصل من اجتماع هذه الفضائل فى النفس . وأما حدود لوازم الفضائل فاللب فضيلة بها يكون الانسان مستقيم الرأى فى الامور قادراً على استنباط ماهو الافضل والاصلح فى الخيرات العظيمة والغايات الشريفة . وثقابة الرأى فضيلة بها يقدر الانسان على أن يؤهل نفسه للامور العظام مع استحقاره لها . والحلم فضيلة بها يكون الانسان غير منفعل من المغضبات انفعالا يحمله على سرعة الانتقام . والكرم فضيلة يلتذ بها الانسان لما يبذل من الخير . والرحمة فضيلة بها يتألم الانسان من شر ينال الغير . والحياء فضيلة بها يحترز الانسان عن الامور المذمومة . والحرية فضيلة بها يكون الانسان ضعيف العلاقة مع

الاشياء الجسمانية حتى يقل شغفه بالاصابة وأسفه على الفوات والخيرية فضيلة بها يلتذ الانسان ويتألم بخير وشر ينال الغير كما يلتذ ويتألم لنفسه . والسخاء فضيلة بها يكون الانسان فعالا للجميل بالمال فيحصل على مايجب وفي الوقت الذي يجب وبالمقدار الذى يجب . وأما حدود أصول الرذائل فالجربزة هي استقصاء الروية في استنباط ماتصور أنه خير وليس بخير . والبله هو قصور الروية عن المقدار الواجب فى مصالح المعاش والمعاد . والتهور هو أن تكون مطاوعة النفس في الاقدام أشد من مطاوعتها في الاحجام بحيث يقدم على مالا يجوز الاقدام عليه شرعا وعقلا . والجبن هو أن يكون بحيث لايقدم على مايجب أن يقدم عليه . والشره شدة الشوق والشبق الى اللذات الجسمية . والجمود عدم الشوق الى مايجب طلبه عقلا وشرعا . والجور هو الميل عن الاخلاق الفاضلة وإهمها لها كما أن العدل هو الاتصاف بها

وأما حدود لوازم الرذائل فهى مقابلات حدود لوازم الفضائل فلا نطول الكتاب بتعريفاتها لانها تعرف بأدنى تأمل

وأما كيفية تحصيل الاخلاق المحمودة للنفس فذهب ارسطو

ومن تابعه الى ان ذلك يدوم بدوام استعمال الاوساط التى هى الفضائل المحصورة بين الاطراف . واعلم ان المقصود من علم الاخلاق هو علاج الاخلاق الفاسدة وحفظ الاخلاق الفاضلة كما أن المقصود من علم الطب الجسماني هو علاج المرض وحفظ الصحة ولذلك سمي علم الاخلاق طباً روحانياً لانه مضاهئ للطب الجسماني فكما أن للبدن صحة ومرضاً كذلك للنفس صحة ومرض . وصحتها بحصول الفضائل ومرضها بوجود الرذائل فان رذائل الاخلاق تمرض النفس وتشقيها كما ان رذائل الاخلاط تمرض النفس وترديها وكما أن للطب قوانين يعرف بها حفظ الصحة وازالة المرض فهكذا لهذا العلم قوانين يعرف بها تحصيل الفضائل وازالة الرذائل . وكما انه يجب أن يكون للابدان أطباء حتي تكون صحيحة معتدلة المزاج فكذا يجب أن يكون للنفوس أطباء حتى تكون فاضلة كاملة الذات . وأطباء النفوس هم الانبياء عليهم الصلاة والسلام لما بسطوا من الشرائع الالهية المشتملة على طرق اصلاح النفوس المبينة لمصالح معاشهم ومعادهم ومن تابعهم من الخلفاء الراشدين والاولياء الكاملين

والحكماء المتأهلين [1] المقررين لقواعد علم الاخلاق . فاقول بعد تقديم هذه المقدمة ان قوانين طب الابدان فى العلاج بان يفصل المرض والسبب والعرض والعلاج فيعرف المرض والسبب بالعرض ثم يعالج بالضد ليزول السبب فيزول المرض فكذا يفصل قوانين طب النفوس الى المرض والسبب والعلاج تفصيلا كلياً مغنياً عن التفصيل الجزئى فى التعليم . أما المرض فهو شدة ميل النفس الى البدن ومحبتها له وهذا الميل والمحبة هو أصل سائر الامراض النفسانية لانه يلزم من ذلك الميل والمحبة ارادة الموافقات للبدن وهى اللذات الحسية ويلزم من هذه الارادة ارادة اسباب الموافقات وهى الاحوال ويلزم من ارادة الاحوال ارادة حافظات الاحوال وهى الرئاسات ثم يلزم من هذه الارادات ارادات كثيرة مستندة الى الارادات الاول وهى الرذائل التى هي أمراض النفس . ثم ان هذه الارادات اذا اشتدت صارت اشواقا وملكات فتحدث الشهوة وهي شدة ارادة الموافق للبدن وهو الملذ الحسى كالمأكول والمشروب

(١) أى المتعبدين مأخوذ من تأله بمعنى تعبد اهـ

والمنكوح والملبوس والمركوب وأمثال ذلك من اللذات البدنية ويحدث الغضب وهو. شدة ارادة دفع المخالف عن البدن وهو المؤلم والمؤذى كدفع الاعداء والذب عن الاصدقاء ولذة الانتقام والاستعلاء وأمثال ذلك . ويحدث البخل وهو امساك الخير عن الغير لاجل نفسه . ويحدث الحسد وهو ارادة أن لا يكون الخير الا له وكذلك سائر الارادات التى هى أمراض النفس . وأما السبب فهو الادراك والشعور بالارادات أولا ثم يلزم من الشعور حكم النفس بأنه خير مع أنه ليس بخير وهذا الحكم اما أن يلزم من تقليده واما أن يلزم من رأى فاسد ثم اذا ثبت هذا الحكم فى النفس صار اعتقاداً واذا ثبت الاعتقاد لزم منه الخلق . واذا تحرك الخلق لزم منه الانفعال ثم صدر عنه الافعال المذمومة كالحسد مثلا فانه يثبت فى نفس الحاسد اعتقاد أن الخير لا يجوز أن يكون لغيره ويغتم بحصوله لغيره ثم اذا عرض سبب من الاسباب المحركة الى الفعل يحصل الانفعال فى نفس الحاسد وهو المحاسدة ولزم منه الفعل وهو التوجه نحو خير الغير وقصد دفعه عنه ومنعه بافعال مذمومة

عقلا وشرعا فهذا هو تحقيق أسباب المرض . وأما العرض فهو العلامات الصادرة عن تلك الانفعالات من الافعال المذكورة المذمومة كالسعي في صرف الخير عن الغير . وأما الانفعالات فهي أيضاً اعراض خفيفة في النفس يعرفها أصحاب تلك الانفعالات وأما الافعال فهي الاعراض الظاهرة الصادرة من النفس المناسبة لتلك الانفعالات فتكون هذه الافعال دلائل على تلك الانفعالات وهي العلامات التي تعرف بها الاخلاق الفاسدة والملكات المذمومة . وأما العلاج فهو باستعمال الاضداد لان الضد يقمع بالضد الآخر . وذلك انما يكون باثبات الاحكام اللازمة عن الرأي الصحيح في النفس بان ارادة البدن وتوابع البدن من الملائمات الحسية انما هي أمراض للنفس مضرة لها في الحال والمآل . أما في الحال فلأن كل واحد منها مؤلم لان صاحبه يكون دائماً في الهم والغم بسبب حصول الخير للغير وبسبب صعوبة ازالته عنه وبسبب منازعة الخصوم والحساد ومنازعة الاعداء والاضداد . وأما في المآل فلما تحقق تارة من الانبياء عليهم السلام بما أخبروا مما يلقى الاشرار وهم أصحاب هذه

الامراض من العذاب الاليم كما قال تعالى «فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى» وتارة من الحكماء بما برهنوا عليه من الشقاء العظيم لنفوس الاشرار والفجار فى المعاد بعد مفارقة الابدان . ثم اذا تحقق بالرأي الصحيح ان هذه الامراض مضرة فى الدارين يلزم ان يحترز الانسان العاقل عنها وان لا يفعل ما يضره فى الدنيا والآخرة بل يجب أن يفعل ما ينفعه فيهما وهو اقتناء الفضائل النافعة فى الحال والمآل لانها مقابلة لتلك الرذائل فى كل ما ذكرناه من الاحوال كما قال الله تعالى «ان الابرار لفى نعيم وان الفجار لفى جحيم» واذا ثبتت هذه الاحكام اللازمة من الرأي الصائب فى النفس لزم منه ترك الارادة الاولى ولزم من ترك الارادة الاولى ترك الارادات التابعة لها لانه اذا بطلت العلة بطل المعلول . ثم اذا تحققت هذه الاحكام فى النفس وجب أن يخطرها بالبال ويقررها ويكررها فى النفس دائماً الى أن تصير ملكات وكلما تكرر خطورها بالبال لاتزال تنفسخ تلك الارادات الى أن تضعف وكلما انفسخت تلك الارادات التى

هيَ الرذائل لاتزال تثبت مقابلاتها بالتدريج وهى الفضائل هـذا هو القانون الكلى لازالة أمراض النفس . وأما حفظ صحتها وهو محافظة الفضائل فهو ان يتعهدالنفس أبداً بمراعات الاخلاق الفاضلة والمحافظة عليها بالآراء الصحيحة ويجعل هذه الاراء الصحيحة فى تعهد الاخلاق ملكة دائمة ويجب أن لايغفل عن صدمة اهمال النفسين فانهما ان أهملتا عادتا الى طبيعتهما الخاصة بهما وأن لايحركهما بالتحيل والتفكر والتذكر فى شيء من أسباب حركتهما وهيجانهما واذا اتفق ان خطر شيء من أسباب هيجانهما بالبال فيجب أن يخطر نقائصهما بالبال حتى تكرهها النفس وتتركها ومن الامور المعتبرة الواجبة فى حفظ صحة النفس المواظبة على الوظائف العملية والعلمية فان اهمال الوظائف العملية يورث الكسل الموجب للحرمان من السعادة الدنيوية والاخروية وابطال الوظائف العلمية يبطل استعداد النفس لقبول الانوار الالهية والمواهب القدسية ومنها المجالسة مع الابرار واستماع نصائحهم والمجانبة عن الفجار واستماع أحاديثهم . وقد قيل بليد نشأ في العلماء أفضل من الابيبـ

نشأفي الجهلاء ومنها اصلاح الروح النفساني التى فى الدماغ بحسب الكيفية والكمية والقوام بصناعة الطب الجسماني فان له أثراً عظيما فى حفظ الفضائل المؤدية الى السعادة العاجلة والآجلة واعلم أن دعوة العلماء الى الفضائل الخلقية بالبراهين الدالة على وجوب التخلق بمكارم الاخلاق وتعودها بمحاسنها ودعوة الأوساط اليها بالجدليات والاقناعيات الدالة على وجوب التخلق بها ودعوة النسوة والصبيان ومن في مراتبهم ممن لايفهم الحجة والبرهان بمدح الافعال الجميلة وتحسينها لهم وذم الافعال الرديئة وتهجينها وتكريهها لهم وحكاية شمائل الاخيار من السلف الصالح وحسن سيرتهم ومحاسن عواقبهم وسوء خاتمة الاشرار ومايلحقهم من تبعات أفعالهم في الدنياوالآخرة وقد جمع الله تعالى دعوة هذه الفرق الثلاث في قوله(ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هى أحسن) وفى الجملة السعادات الجميلة والاخلاق الحميدة انما تحصل بالاجتناب عن الافعال الرديئة وتكرار الافعال الجميلة والاعتياد بها واثباتها مرة بعد أخرى والمبالغة فيها والمحافظة

عليها حتى تستقيم النفس وتستوى كالخشبة المعوجة التي يراد تقويمها وتسويتها فانها انما تستوى اذا بنيت الى ضد جهة اعوجاجها حتى تقف على الاستواء والاستقامة التى هي الوسط بين الجهتين . واعلم أن النفس الناطقة كالملك السائس المدبر للمدينة والقوة الغضبية كالجند الذي يستعين به الملك على تقويم الرعية والقوة الشهوانية والقوى التى تتبعها كالرعية وكما أن صلاح المدينة وانتظام أمورها لا يكون الا بأن يكون الملك عالماً بمناهج السياسات محيطاً بوجوه التدابير عارفاً بمواقب الامور سائساً للجند مقوماً للرعية وأن يكون جنده أقوياء منقادين له مطيعين لامره واشارته وأن تكون الرعية ضعفا قابلين للتقويم والتعديل حتى لو قدر الامر بخلاف ماذكرنا امتنع صلاح الملك واستقامة حال الرعية . فكذلك العدل الخلقي لا ينتظم فى العالم الانساني الا بأن تكون النفس الناطقة مستولية على النفسين الاخريين متصرفة فيهما على مقتضى الرأى الصائب والنفسان منقادتان لها مطيعتان لامرها واشارتها غير متابعتين لمقتضى طاعتهما فى استيفاء لذة الانتقام

والغلبة وقضاء وطر الشهوات قانعتين فيهما بما أطلعها العقل والشرع متمسكتين بأحكام الشريعة الحقة فى جميع الاحوال والاعمال فانها الاعمال الموصلة الى السعادة الابدية المقربة الى الحضرة الصمدية فان أساس الفضائل ومىلاكها هو الرجوع الى ملاك الحضرة والوصول الى جناب رب العزة فانه مجمع اللذات ومنتهي السعادات

﴿ القسم الثانى فى الفروع الجزئية لمحاسن الاخلاق ﴾

(الفصل الاول منه) فى نصائح الحكماء والآداب النافعة يجب على طالب الكمال أن يعرف أصول الامور وفروعها ويتقدم باحراز الاصول فان كثيراً من الناس ضيعوا الوصول بتركهم الاصول كما قيل من ضيع الاصول حرم الوصول فان أصاب الفروع بعد احراز الاصول فهو أفضل . فأصل الامر فى الدين أن يعتقد على الايمان ويجتنب الكبائر ويؤدي الفرائض فألزم ذلك لزوم من لاغناء له عنه طرفة عين ومن يعلم أن من حرمه هلك — ثم ان قدرت أن تجاوز ذلك الى

الفقه والعبادة فهو أفضل . وأصل الامر في اصلاح الجسد أن لا يحمل عليه في المآكل والمشارب والباه الاحقه ثم ان قدرت على أن تعلم جميع منافع الجسد ومضاره والانتفاع به فهو أفضل وأصل الامر في الناس أن لا تحدث نفسك بالادبار وأصحابك مقبلون على عدوهم ثم ان قدرت أن تكون أول حامل وآخر منصرف في غير تضييع للحذر فافعل فانه أفضل . وأصل الامر في الجود ألا يضن بالحقوق عن أهلها ثم ان قدرت على أن تزيد ذي الحق على حقه وتتفضل على من لا حق له فهو أفضل وأصل الامر في الكلام أن يسلم من السقط بالتحفظ ثم ان قدرت على بارع الصواب فهو أفضل . وأصل الامر في المعيشة التأني في طلب الحلال وأن يحسن التقدير لما ينفق ولا يغرنك من ذلك سعة تكون فيها فان أعظم الناس في الدنيا أحوجهم الى التقدير ثم ان قدرت على الرفق واللطف في الطلب والعلم بالمطالب والمكاسب فهو أفضل وقس على هذا مراعاة الاصول وتقديمها على الفروع في جميع الامور . واعلم أن لكل شيء سبباً وعلة وسبب طيب العيش مداراة الناس وسبب المداراة وفور العقل

وسبب اليسر التيسير وسبب المزيد الشكر وسبب زوال النعم البطر وسبب العفة غض البصر وسبب العطب الغضب وسبب الزينة الادب وسبب الفجور الخلوة وسبب البغضة الحدة وسبب المحبة الهدية وسبب الدعة الضمة وسبب الاخوة البشاشة وسبب القطيعة كثرة المعاتبة . وسبب الفقر السرف وسبب الثروة حسن التدبير . وسبب المقت الحلف وسبب البلاء المراء وسبب الهوان الطمع وسبب الثناء السخاء وسبب التجارة الصدق وسبب النجاح الرفق وسبب المذلة المسألة وسبب الحرمان الكسر وسبب العلو حسن الرئاسة وسبب النيل ترك المزيد وسبب النفرة الصلف وسبب الاموال الحلول بساحة الملوك . وسبب الخير كله غلبة العقل على الهوي . وقيل لحكيم ما السرور قال عقل يقيمك وعلم يزينك وولد يسرك ومال يسعك وأمن يريحك وعافية تجمع لك المسرات . واعلم أن من الامور ما لا يصلح الا بقرانها فلا ينفع العلم بغير ورع ولا الجمال بغير حلاوة ولا الحسب بغير أدب ولا السرور بغير أمن ولا الغنى بغير جود ولا المروءة بغير تواضع ولا شدة البطش بغير شدة القلب ولا خفض العيش بغير كفاية ولا الاجتهاد

بغير توفيق وقيل السعيد من الناس من كان العقل أوفر طباعه والعلم أفضل ذخائره ولا يغنيه الا القناعة ولا يؤمنه الا البراءة ولا يوجب الزيادة له الا الشكر ولا يدفع عنه المكاره الا الدعاء ومن عدم العقل لا يزيده السلطان عزاً . ومن عدم القناعة لا يزيده المال غنى . وقيل وقر من فوقك ولن لمن دونك وأحسن موافاة اكفائك وكما قيل وقر كبيرهم وارحم صغيرهم وراع في الخلق حق من خلقه ولتكن أبر من ذلك بموافاة اكفائك فان هذا يشهد لك بأن اجلالك لمن فوقك ليس بخضوع لهم وان لينك لمن دونك ليس لطمع فيهم . واذا استطلت على الاكفاء فلا تضن عنهم بالصفاء وأحسن تقدير معاشك ومعادك تقديراً لا يفسد عليك إحداهما الآخر فان أعياك ذلك فارفض الادنى وآثر الاعظم . ولا ترتكب قبيحاً في وقت من الاوقات لا على خلوة ولا مع غيرك وليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك . واعلم أن دواعي الشهوات اذا اتصلت بها حاجاتها كانت كالحطب للنار وكالماء للسمك واذا منعتها عنها وحالت ما بينها وبين ما تهوى انطفأت كانطفاء النار عند فقدان الحطب

وهلكت واضمحلت كهلاك السمك عند فقدان الماء ولا تستصغرن شيئاً من الخطأ الذى يخالف صواب رأيك فان من استصغر صغيراً أوشك أن يجتمع معه صغير آخر حتى يصير الصغير كبيراً وانما هو بلم [1] يبلمها العجز والاهمال فى عقلك فاذا لم يسد أوشك أن يتفجر بما لايطاق سده ولم تر معظما الا وقد أتى به من جهة الصغير المتهاون به . فان الامراض قد تأتى من جهة المحتقر منه حتى يهجم منه على الداء العضال والانهار تتفجر من الثقب الصغيرة المستهان بها والحريق العظيم يكون من قبل الشرر الصغير كما قيل * ومعظم النار من مستصغر الشرر * واحذر من مخاصمة الاهل والولد والصديق والضعيف ولا تستفسد صديقاً بهفوة تصدر منه ولاتلم أحداً على ما قد يكون فى مثله العذر حتى تعلم ما اعتذاره ولا تعد لكل فارطة عتابا وليكن عتابك تأديباً لا تأنيباً . فان شر الادب ما كان تعسيراً وخيره ما كان تيسيرا وليكن ماتصرف به العذاب والاذى عن نفسك أن لا تكون حسوداً . واعلم أن الحسد خلق اثيم ومن

«١» البلم عيون ضيقة ويبلمها يفجرها اه

لؤمه انه متوكل بالادنى فالادنى من الاكفاء والاقارب والخلطاء وعذّب حسادك بالاحسان اليهم ودارعدوك لامرين اما لرجاء صداقة تؤمنك واما لفرصة تمكنك ولاتخبره بأنك له عدو فتفرحه بحزنك وتحمله على التسلح لك وتوقدناره عليك وأعظم لخطرك أن تُرى عدوك انك لاتتخذه عدواً فان ذلك غرة له وسبيل لك الى القدرة عليه. وان قدرت على اغتفار العداوة عنه وارتفعت عن أن تكافئ بها فقد استكملت عظم القدر والخطر وان كنت مكافئاً بالعداوة والضرر فاياك أن تكافئ عداوة السر بعداوة العلانية وعداوة الخاصة بعداوة العامة فان ذلك هو الظلم والعار العظيم

واعلم انه ليس كل عداوة تكافأ بمثلها كالخيانة. والسرقة لاتكافأ بالسرقة. ولا تتخذن اللعن والشتم سلاحا على عدوك فانه لا يجرح فى نفس ولا مال ولادين فلا تلوثن نفسك بما لايضر عدوك. ولا تدع مع ذلك احصاء معائبه واخفاءها عنه حتى تبديها فى موضعها عند الحاجة. واعلم انه قلما بدأ أحد بشئ يعرفه من نفسه وقدكان يطمع فى اخفائه عن الناس فيعير به

عدوا عند سلطان أو غيره الا كاد أن يشهد عليه وجهه وعينه ولسانه والذى يكون من انكساره وفتوره عند ذلك بالبداهة فيجب على العاقل أن يحذر هذه الحالة ويتجلد عليها ويقدم فى الاهبة لانتفائها

عود نفسك الصبر على من خالفك من ذوي النصيحة والتجرع لمرارة قولهم وعذلهم . ولا تسهل سبيل ذلك الا لذوي العقل والسن لئلا يجترئ عليك سفيه أو يستخف بك شانئ وان ابتليت من سفيه بسفاهة فاياك أن تحتذى مثاله وتعارضه بسفه فان كان ذلك عندك مذموماً فحقق ذمامك اياه بترك معارضته وارع عرضك بالاعراض عنه فانه لا يغلب فى المخاصمة شر الناس الا من كان شراً منه . وان كنت في جماعة فلا تعمن أمة من الامم بشتم أو ذم ولا تذمن اسما من أسماء الرجال والنساء فانك لا تدرى لعلك تتناول بعض أعراض جلسائك أو أسمائهم أو أسماء من يتصل بهم فيجرح في قلوبهم وجرح اللسان في النكاية كجرح السنان ولتعلم صاحبك وصديقك أنك حدب على صاحبه وصديقه ولا يرى منك نفرة من أصحابه

وأعوانه فان ذلك ينكأ في القلوب ولطفك بصاحب صاحبك أحسن موقعا عنده من لطفك به نفسه. واتق الفرح عند المحزون واعلم انه يحقد على المنطلق ويسكن للمكتئب. واجتنب عن مؤانسة المعجب الكفور ومعاشرة الرجل السيئ الخلق ومطاعمة الشره الوقح ومنازعة الاديب المفوّه وعن الالحاح والمراء مع الاخوان وان كنت لسناً — ولا تكثرن ادعاء العلم فى كل مايعرض لان فوق كل ذى علم عليم. وانك من ذلك فى فضيحتين اما أن ينازعوك فيما ادعيت فيهجم عليك بالجهالة والصلف واما أن لا ينازعوك ويخلوا الامرين من يديك فيطلع منك على التصلف والدعوى فان آنست من نفسك فضلا فتطلعت بنفسك تذكره وتبديه فاعلم ان ظهوره منك بذلك الوجه يقرر فى قلوب الناس من العتب أكثر مايقرر لك من الفضل وانك إن صبرت ولم تعجل ظهر ذلك منك على الوجه الجميل المعروف ولتعرف العلماء منك اذا اجتمعت معهم انك على أن تسمع أحرص منك على أن تقول. اذا أردت ثوب الجمال وأن تحلى به وتجلب به المودة عند الخاصة والعامة وتسلك

سبيلا لا عثار فيه فكن عالما كجاهل وناطقاً كعيي فان النطق اذا احتجت اليه يلبيك الى حاجتك وأما الصمت فيكسبك المحبة والوقار. واذا رأيت الرجل يحدث حديثاً قد علمته أو يخبر خبراً قد سمعته فلا تشاركنه فيه ولا تقبحه عليه حرصاً منك ان تعلم الناس انك قد علمته فان فى ذلك خفة وسوء ادب وشحا واعلم ان لسانك اداة مغلبة يتغالب عليه عقلك وغضبك وكل غالب عليه مستمتع به يصرفه فيما يحبه فاذا غلب عليه عقلك فهو لك والا فهو لعدوك فأجتهد ألا يكون الا لك ولا تحدثن الا من يرى حديثك مغنما فمن لم يبسط لحديثك فارفع عنه مؤونة الاستماع مالم يغلبك الاضطرار وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام ومن حسن الاستماع امهال المتكلم حتى يقضى كلامه وقلة التلفت الى الغير وترك سرعة التلفت الى الجواب والاقبال بالوجه والنظر الى المتكلم حتى يقضى كلامه بتمامه. ولا تخلطن بالجد هزلا ولا بالهزل جداً فانك ان خلطت بالجد هزلا هجنته وان خلطت بالهزل جداً كدرته الا فى موطن واحد ان قدرت ان تستقبل الجد بالهزل اصبت فى

الرأي وظهرت فيه على الاقران. وذلك ان يتورد متورد بالسفه والغضب وسوء الغلط فتجيبه اجابة الهازل المراغب برحب من الذرع وطلاقة من الوجه وثبات من المنطق

ومن سوء معاشرة الرجل ان تثقل عليه نعمة يراها لصاحبه فيكون مما يتشفى به في تصغير صاحبه وتكدير نعمته ان يذكر زوال النعم وفناء الدول كانه واعظ أو قاض ولا يخفى ان قوله لا ينزل بمنزلة الموعظة ولكن بمنزلة الضجر من النعمة والاغتمام لها والاستراحة بقوله عنها. واعلم انه سيمر بك من الاحاديث ما يعجبك اما مليحة أو رائعة ثم تحرص على ان تعجب منها اقوام وليس كل معجب لك معجباً لغيرك فاذا نشرت ذلك مرة أو مرتين ولم تره وقع من السامعين موقعه منك فانزجر من العود له فان التعجب عن غير عجب سقط شديد. واذا أصاب اخوك فضل منزلة من السلطان فلا ترينه ان ذلك الفضل زادك له ودا ولا يعرفن منك عليه بماضي اخائه تذللا وأره ان سلطانه زادك له توقيرا واجلالا ولا تقدر الامور بينك وبينه على ما كنت تعرفه من اخلاقه فان الاخلاق مستحيلة مع السلطان واذا رأيت

في جدة دولة أمرا قد استقام بغير رأى وحزم وأعوانا غلبوا بغير فضيلة واستحقاق فلا تغتر بذلك ولا تعظم أمرها فان ذلك الامر يستنب ثم تصير الشؤون الى حقائقها وأصولها. وقد قيل دولة الجاهل كالغريب يحن الى وطنه بالانتقال ودولة العاقل كالنسيب يحن الى مقامه بالاتصال

ذلل نفسك بالصبر على الجار السوء والجليس السوء فان أنقص الناس من آذى جاره وجليسه كما قيل اصبر لاذى جارك السوء اما ان يرحل او يموت

واعلم ان اللئام اصبر اجساداً والكرام اصبر نفساً لان الصبر على ماتلقى الاجساد من صفات البهائم والصبر المحمود أن يكون المرء للنفس غلوباً ومن الهوى حذوراً وللمشاق التي ترجى حسن عاقبتها متحملا وعلى مجاهدة الشهوات صبورا وعود نفسك السخاء. واعلم ان السخاء على نوعين سخاء الانسان بما في يده وسخاؤه عما فى أيدى الناس والاول أقربهما من أن يدخل فيه المفاخرة وترك مافى أيدى الناس أمحض فى فى التكرم وأنزه من الدنس فان جمعهما أحد فبذل وعف فقد

استكمل الجود والكرم . واعلم ان محض الكرم الوفاء بالذمم والطمع فيما عند الناس من لؤم النفس ودناءة الهمم . وإياك والفخر مع العلم بالذى منه كنت وبالذى اليه تصير وتحللك مافى بطنك وتركبك من الاشياء التى شأنها الانحلال والانتقال من حال الى حال . وإياك والكذب فانه لا يكون الا من مهانة النفس وسخافة الرأى والجهالة بعواقب مضرته . وأقل مضاره ان يقال فلان لا يصدق فيسقط اعتبار قولك من أعين الناس وإياك والحلف فى حال الصدق فأما فى حال الكذب فاجتنب منه أشد الاجتناب . واعلم ان أوقع الامور فى الدين وأنهكها للجسد وأتلفها للمال وأضرها بالعقل وأسرعها فى ذهاب الجلالة والوقار الاغراء بالنساء . ومن البلاء على المغرور بهن انه لا يزال يكره ماعنده ويطمع فيما عند الناس وانما النساء أشباه وما يظهرن فى العيون والقلوب من فضل مجهولاتهن على معروفاتهن باطل وخدعة بل كثير مما يرغب فيه الراغب مما عنده أفضل مما تتوق اليه نفسه وانما المرتغب عما فى رحله منهن الى مافى رحال غيره كالمرتغب عن طعام بيته الى مافى بيوت الناس من الاطعمة

بل النساء بالنساء اشبه من الطعام بالطعام فاحذر عن هذه الرذيلة أشد الحذر

لا تفرح بالبطالة وان كان فيها راحة ولا تحزن من العمل وان كان فيه تعب واغتنم من الخير ماتعجلت ومن الاهواء ماسوفت . واعلم أن الخير مغلبة وان الحرص محرمة . من قتل فى الحرب مقبلا أفضل ممن قتل مدبراً . ومن طلب بالاجمال والتكرم أكثر وصولا الى مطلوبه ممن طلب بالشره والحرص وادراك الحاجة من الناس لايمكن الا بلطف السؤال ولين المقال وحسن الاناءة وقلة الاستكراه . ولا تستهزأ بالمال وتميته فان المال آلة للمكارم وعون على الدهر وقوة على الدين ومألفة للاخوان . وفقد المال معه قلة الاكتراث من الناس وتتبعه قلة الرغبة اليه والرهبة منه ومن لم يكن بموضع رغبة أو رهبة استخف به الناس . قيل لحكيم لم تجمع المال وأنت حكيم قال لاصون به العرض وأؤدى به الفرض واستغنى به عن القرض ولا تتقدم على النوم الا بعد ان تتصفح من الافعال التى فعلتها فى نهارك أجمع وما لم تفعلها فمتى كنت قد أتيت مكروهاً

فليذعرنك ومتى كنت قد أتيت رضيا فليبهجنك وان كنت تركت مايجب عليك فعله فلتلومن نفسك بالتقصير حتى تنزجر عما تكره وتدوم على مايجب وتدارك ماقصرت فيه. واياك والتعرض لامر مذموم فان ماتراه مذموماً فى غيرك لا يكون محموداً فيك. واياك ان تظن ان حسناتك تستغرق سيئاتك هيهات فان القليل من الاساءة فى القول والفعل يمحق كثيراً من الحسنات. واعلم أن العادات قاهرة فمن اعتاد شيئاً فى سره وخلواته فضحه فى علانيته عند الملأ فاجتهد فى اقتناء العادات الجميلة والاجتناب عن العادات الرذيلة. ومن كلامهم لا يوجد الفجور محموداً ولا الغضوب مسروراً ولا الحر حريصاً ولا الكريم حسوداً ولا الشره غنياً ولا الملول ذا اخوان ولا يوجد عاقل يحدث من يخاف تكذيبه ويسأل من يخاف منعه ويعد من لا يثق بانجازه ويرجو مايعنف برجائه ويقدم على مايخاف العجز عنه (وصية الفرس) كن صدوقاً لتؤمن على ماتقول وكن ذا عهد لتوفى بعهدك وكن شكوراً تستوجب الزيادة وكن جواداً لتكون للخير أهلا وكن رحيما للمضرورين لئلا تبتلى بالضر وكن ودوداً

لئلا تكون معدنا لاخلاق الشياطين وكن مقبلا على شأنك لئلا تؤخذ بما لم تجترم . وكن متواضعا ليفرح لك بالخير وكن عالما لتقر عينك بما أوتيت وسرّ للناس بالخير لئلا يؤذيك الحسد وكن حذراً لئلا تطول مخافتك ولا تكن حقوداً لئلا تضر بنفسك الفانية اضرارا باقياً وكن ذا حياء لئلا تستذم الى العلماء فان مخافة العاقل من مذمة العلماء [1] أشد من مخافته من السلطان القاهر (وصية لقمان لابنه) كن فى الشدة وقورا وفى المكاره صبورا وفى الرخاء شكوراً ولا تهن من أطاع الله ولا تكرم من عصى الله ولا تدع ماليس لك ولا تجحد ما عليك ولا تتعرض للباطل ولا تقل مالم تعلم ولا تتكلف مالا تطيق ولا تتعاظم ولا تفخر ولا تضجر ولا تغتب ولا تهمز وان أسيء اليك فاغفر وان أحسن اليك فاشكر وان ابتليت فاصبر واحفظ العبر واحذر الغير . وقيل عظموا قدركم بالتغافل عن دنيء الامور وامسكوا رمق الضعيف بالمعونة ودربوا عقولكم بادب كل زمان واجروا

(١) المقصود من العلماء العاملون بعلمهم لا كمن يمدح ويذم لغرض شخصي فان مثل هؤلاء شياطين اه

مع اهله على مناهجهم يقل من يخاصمكم وتسلم أعراضكم وضموا عنكم مؤنة الخلاف والمماحكة فى المنازعة فربما اورثت الضغائن ونقضت مبرم الموادات ولا يطمعن ذو الكبر فى الثناء الجميل ولا الخب[1] فى كثرة الصديق ولا سيئ الادب فى الشرف ولا الحريص فى لذة العيش . وقال آخر من كره العار فليتجنب خمس خصال الحرص والشح واحتقار الناس واتباع الهوى والمطل بالوعد . وقيل لا تؤاخين مخادعا ولا تستنصرن عاجزاً ولا تستعين كسلان ولا تحسبن العالم الفاجر عالماً ولا الناسك الخادع ناسكا ولا الاخ الخاذل أخا ولا مصطنع الكفور منعما ولا من عظم عنده الدنيا عاقلا . واذا رأيت نفسك قد تصاغرت الدنيا عندها ودعتك الى الزهادة فيها على حال تعذر فلا يغرنك ذلك من نفسك على تلك الحال فانها ليست بزهادة لكنها ضجر وضعف وتغيير من النفس عن ما اعجزها من الدنيا وغضب منك عليها لما التوى عليك منها فاذا عمت الى رفضها وامسكت عن طلبها اوشك أن ترى من نفسك من الضجر

---

(١) الخب المخادع وهو بكسر الخاء تسمية بالمصدر اه

والجزع أشد من ضجرك الاول بالاضعاف ولكن اذا دعتك نفسك الى رفض الدنيا وهى مقبلة عليك فاسرع اجابتها الى ذلك فانها زهادة . وتمسك فى كل الامور بحبل الحزم والاجتهاد واسأل الله توفيق الثبات والسداد

﴿ الفصل الثانى ﴾

فيما يجرى مجرى الامثال السائرة من الكلمات النادرة محاسن الاخلاق . كنوز الارزاق . صفاء الاخلاق . من بقاء الاعراق . الشرف بالهمم العالية لا بالرمم البالية . الفضل بالشهامة والعمل لا بالفخامة والطلل . لا سمير كالعلم ولا ظهير كالحلم . من غزرت عوارفه كثرت معارفه . السلامة مع الاستقامة . الجهل مطية من ركبها سقط ومن صحبها حبط . من عدل عن سبيل السلامة حصل على طول الندامة . اصطناع الاراذل سمة فى وجوه الافاضل . كفران النعم عنوان النقم . الحر اذا زل استطال واذا ملك أقال . الكريم من أكرم الاحرار . والكبير من صغر الدينار . السودد بكثرة الاتباع وكثرة الاتباع بكثرة

الاصطناع . ثمرة الادب العقل الراجح وثمرة العلم العمل الصالح .
لا يقع فى البئر الا من حفر ولا يحيق المكر السيئ الا بمن مكر .
من أمن من الزمان خانه ومن يعظم عليه أهانه . من اقتصد في الغنى
والفقر فقد استعد لنوائب الدهر . من التوقى ترك الافراط فى
التوقي . لابد للجواد من كبوة وللسيف من نبوة وللحليم من
هفوة . الانتقام عدل والتجاوز فضل . خير المزاح لا ينال وشره
لا يقال . بادر الى العمل وكذب الامل ولاحظ الاجل . التلطف فى
الحيلة خير من الوسيله . الاعتبار يجلو من البصر ظلمة
الاغترار . الغني ترك المني . من صارع الحق ذل ومن أعجب
برأيه ضل . ليس من العدل سرعة العذل . الحر عبد اذا طمع
والعبد حر اذا قنع . من اشتد شرهه ظهر سفهه . شر الناس من
يعمل كارها ويأكل فارها . نعم الموازرة المشاورة . بئس الاستعداد
الاستبداد . دولة الجاهل عبرة العاقل . العاقل ينظر بعقله وخاطره
والجاهل ينظر بعينه وناظره . من ذكر المنية نسى الامنية . من
اكتفى بالكفاف اكتسى بالعفاف . عرض للكريم وصرح
للئيم . من لم تهزه قليل الاشارة لم تنفعه كثرة العبارة . بعض الحلم

مذلة وبعض الاستقامة مدلة . من أهان ماله صان نفسه . اذا برزت العقول كثرت الفضول . زوال الدول باصطناع السفل رب فرصة تؤدى الى غصة . رب حجة تأتى على مهجة . رب دم هو سفكة فم . من طلبه القدر لم ينجه الحذر . لاتخدعنك الدنيا بخدائعها ولا تفتننك بودائعها . الرقاد عن هول المعاد مقطعة للزاد العذر من صغر القدر . لكل نجم أفول ولكل زهرة ذبول عند تصحيح الضمائر تغتفر الكبائر . الرفق يفك حد المخالفة انظر الى الدنيا اعتباراً لا اغتراراً . واعمل البر بداراً لا انتظاراً لاتدخر عمل اليوم الى الغد . فان كل يوم يأتى بمشاغله الصدق أمانة والكذب خيانة . الصحة بضاعة والتوانى اضاعة . لقاء الاخوان جلاء الاحزان . الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما لاتطلب مجازات أخيك ولو حث التراب بفيك . آخر الصبر أول الفرج . خمير الرأى خير من فطيره . . من ثقل على صديقه خف على عدوه . . من رضى عن نفسه اكثر الساخطين عليه الرفق أدنى سبب للرزق . ياحبذا الوحدة من أنيس اذا خُشيت آفة الجليس . نعم التجارة الشكر . لاعذر مع الاصرار . لاصحة مع

النهم . لا صداقة مع الحسد . لا راحة مع الحرص . لا عذر مع الكبر . صدرك اوسع لسرك رب أخ لم تلده أمك . تروّ بحزم فاذا استوضحت فاعزم . انتهز الفرصة قبل ان تعود غصة . مغالبة الحق من غلبة الحمق . الدنيا دول تبنيها الاقدار ويهدمها الليل والنهار . الكتب اصداف الحكم أسد حطوم خير من سلطان ظلوم وسلطان ظلوم خير من فتنة تدوم . اذا عظمت القدرة قلت الشهوة المصطلى بالنار اعلم بحرها . رب صغير هاجه كبير . رب غم يدب تحت سرور . ستساق الى ما أنت لاقــ . البخيل حارث نعمته وخازن لورثته . لكل امرء من دنياه ما ينفق لاخراه . تجرع من عدوك الغصة حتى تجد الفرصة . لا خير فى من لا تعظه التجارب . الاحمق من يأ كل مايجد ثم يسأل مالا يجد . من بالغ فى الخصومة ظلم ومن قصر فيها ظلم . الحسود لا ينال شرفا ولا يفارق أسفاً . قلة معرفة الانسان لعيوبه اكبر ذنوبه . أحضر الناس جوابا من لا يغضب . أوضع الناس من عمل على الرهبة . فخر المرء بفضله لا بأصله . لا يقوم عن الغضب . بذل الاعتذار . الشر يطفئ نار العداوة ليس كل

انس مودة . ولا كل انقباض وحشة لاتقل مالاتعلم ولاتنازع فيما لاتعلم . رتبة العلم أعلى الرتب . غلام عاقل خير من شيخ جاهل . هموم المرء بقدر همه . قيمة المرء همته . فى تقلب الاحوال تعرف جواهر الرجال . ادب المرء خير من ذهبه جولة الباطل ساعة وجولة الحق الى يوم الساعة . غضب الجاهل فى قوله وغضب العاقل فى فعله . ظل الاعرج أعوج . فرع الشئ يخبر عن أصله . أشقى الناس من له عدو عاقل . من مروءة الرجل نقاء ثوبه . ولاية الاحمق سريعة الزوال . لافقر للعاقل ولا كرامة للكاذب لاثناء مع الكبر . ولا شرف مع سوء الخلق ولا داء أعيي من الجهل . ولا كرم اعز من التقى اذا تم العقل نقص الكلام . افقر الفقر الحمق وأغنى الغنى العقل اوحش الوحشة العجب . ايمان المرء يعرف بايمانه . اخوك من واساك فى الشدة اخفاء الشدائد من المروءة بركة العمر فى حسن العمل جد بما تجد . حرم الوفاء على من لا أصل له خف الله تأمن غيره . الغريب من ليس له حبيب . صديق مساعد عضد وساعد ومماجاه فى المظة * الفقر خير من غنى لا ينفع

اذا عزّ بحر لم يجزلي التيمم * وعند صفو الليالي يحدث الكدر
وقد عرفت ريح الليوث البهائم * بجبهة العير يفدو حافر
الفرس . ما للعبيد عن الموالي مصدر * الفضل ما شهدت
الاعداء به * الدّر يقطمه جفاء الحالب النجيح يأنف بين العجز
والضجر * ان الوعيد سلاح العاجز الحِق المرء يصلحه الجليس
الصالح * الليث لايصلح العقي اذا وثبا انى بما أنا بال منه
محسود * ان الاسود حليها غضبان * ومن سامح الايام طاب
جنانه * ومن ناقش الاخوان قل صديقه * وان فساد الرأى
ان يترددا * الناس خلاف اذا لم يغتفر اذا لم تجد بالمال حادثك
الدهر * الموت مستعجل يأتى على مهل عليك بالحفظ دون
الجمع من كتب * لكل امرء من دهره ما تعودا اذا عظم
المطلوب قل المساعد * ليس التكحل في العينين كالكحل . لا فخر
الا بالصديق العاقل * ومن وجد الاحسان قيدا تقيدا * ولم ار
كالتواضع في علو * فكأنها وكأنهم أحلام * الله فرد يحب الفرد
فانفرد . العمر منقرض والدهر خوان * وكل يوم مضى بعض
من الاجل * متى يستقيم الظل والعود اعوج * عند الشدائد

تعرف الاخوان * عند الشدائد تذهب الاحقاد * الرأى قبل شجاعة الشجعان * اذا أنت أكرمت الكريم ملكته * خلق الزمان عداوة الاحرار * تم القسم الثانى من هذا الكتاب والحمد لله العلى الوهاب

القسم الثالث فيما يتعلق بمكارم اخلاق الملوك وآداب اتباعهم

{ الفصل الاول منه فى مكارم اخلاق الملوك خاصة }

اعلم ان شريف الاعمال لا يتصرف فيه الا بشريف الاخلاق وان الرئاسة لا تتم الا بحسن السياسة فان السائس الرشيد كالطبيب الحاذق فى حفظ الصحة وازالة المرض وما يعرض فى المملكة من الاضطراب شبيه بما يعرض فى الاجساد من الاوجاع والاوصاب فينبغى ان يكون اجتهاد الملك فى

رعاية صحة مملكته وازالة مرضها كاجتهاده فى رعاية صحة بدنه وازالة مرضه ويكون اغتباطه بما يخلفه من الذكر الجليل والاثر الجميل اكثر منه بمايشاهده فى مدة حياته بسمعه وبصره قال الحكيم اولى الناس بالملك اشدهم محبة لاصلاح الرعية واعلمهم بالتدبير واشدهم سلطانا على هواءه وأقهرهم له فيما يتعلق بمصالح المملكة واقدرهم على بسط العدل فيها ورفع الظلم عنها فان العدل ميزان الله فى ارضه به يؤخذ للضعيف من القوى وللمحق من المبطل فمن لم يراع حق الله وميزانه فيما بين عباده وبلاده فقد جهل اعظم الجهالة واغترا شد الاغترار ولا يمكن ضبط المملكة ولا رعاية الرعية الا بالهيبة ولا هيبة للملك عند الخاصة والعامة مثل هيبة العدل والنزاهة من معرة الشهوات (وفى وصية ارسطو والاسكندر) احذر الشهوات وليكن ماتستعين به على كف النفس عنها علمك بانها مذهلة للعقل مهجنة للرأى شائنة للعرض شاغلة عن عظيم امور الملك فان نازعتك نفسك الى الشهوات واللذات واللهو والملهيات فقد نزعت بك الى شر منزلة وادناها وأخسها وأسقطها فغالبها

أشد المغالبة وامتنع منها أشد الامتناع وليكن مرجعك منها الى الحق ولا تداهن نفسك فى الهوى اليسير فتطمع منك فى الكبير ولا تبطل عمرك فى غير الحق ولا مالك فى غير الواجب ولا قوتك فى غير الرشد فان كنت لا بد لك ان تشتغل بلذة فلتكن فى محادثة العلماء ومطالعة كتب الحكمة فان ذلك يجمع لك السرور وتمام السعادة وخلافه يجمع لك عاجل المعرة ووخامة العاقبة. وقال حكيم آخر لا تغرن الملك غروراً بان تحسن له دواعى اللهو والهزل والمضحكات فان ذلك صبا او تصابى ولا توهمه وهما بأن تناولها يزيل ملالة أو كلالة وانه أنفع من أطراحها فان ذلك من أسقط الاوهام واردأها وأخسر صفقة ممن باع غنيمة الحياة وأشرف الاعمال الموصلة الى السعادات الابدية بادون الافعال البهيمية التى هى فعل الصبيان والنسوان له. وحسّن له الفراغ من أهل التعطيل فان أراد ازالة ملالة فليكن فى مجاورة الفضلاء من الندماء ومسامرتهم واستماع آثار من غبر من ملوك الزمان وتحول أحوالهم وأعصارهم وتقلب دولهم وأدوارهم فتزول ملالته بذلك وتهذب أخلاقه بما تكسبه الفكرة

فى ذلك من فوائد التجربة وان استراح احياناً من السماع
بما كان داعياً الى الكرم وحاثا على السماح ومحركا الى الشجاعة
ومن الصيد والقنص بما يكون تدربا ورياضة لخيله وجنده
فلا بأس عليه مع انه لا سماع أشرف من حكمة تخبر بحقائق
الاشياء ولا صيد أنفع من قيد قلوب الاعوان والاولياء واكثر
ماينتفع به الملك تدبير المملكة وزينة السلطنة ومحافظة الهيبة
ومجاورة العلماء واستماع آدابهم وقبول نصائحهم وأن يجعلهم
ثقاته وأعوانه وبطانته وحراساً على أفعاله وأحواله بحيث لا يغفلون
عنه واذا غفل هو عن نفسه فالواجب عليه تمهد أحوالهم
وكفاية مؤوناتهم وأن لا يحقر أحداً منهم لخموله وركاكة حاله
فان هلاك الملوك فى الدنيا والآخرة فى استصغار العلماء واحتقار
ذوى النهى والعقل . وليعلم ان سرعة ائتلاف الاخيار عند
استمالتهم كسرعة اختلاط ماء المطر بالبحار وبعد الاشرار من
الائتلاف وان طالت معاشرتهم كبعد البهائم من التعاطف وان
طال اعتلافها وان اشتبكت على الملك الامور وعميت عليه
التدابير فليكن مفزعه فيها الى آراء العلماء المرشدين والوزراء

الناصحين والمشاورة معهم فان منها تستبين مصالح الامور كما تستبين المصابيح فى ظلم الديجور فان الحازم فيما اشكل عليه من الرأى بمنزلة من أضل لؤلؤة فجمع ماحول مسقطها من التراب فنخله حتى وجدها كذلك الحازم يجمع جميع الآراء فى الامر المشكل ثم يمعن فيه فكره ويسقط بعضه حتى يخلص منه الرأى الصائب. وقد قيل المستشير متحصن والمستبد متهور فى الغلط ولعل رأيك يوهمك بأن بعض الناس يزدريك لاقتباسك منهم صواب الرأى ويستخف أمرك عندهم فان خطر هذا فاطرحه أشد الاطراح فان الذى تسعد به من العلم المستفاد منهم وتفوز به من مخالفة أهل الجهل افضل لك وأتم نفعاً وأعظم خطراً من أن يماد له شئ سواه مع ان الناس فيك رجلان رجل عاقل يتحقق عنده صواب رأيك وجاهل لايفرق بين صواب الرأى وخطاءه فلا اعتبار بقوله وفعله عند العقلاء. وليعلم الملك ان تمهيد قواعد المملكة وتنظيم أمور العدلة لايتم الا بحسم بوائق الاشرار وحسن رعاية الاخيار وصلاح الاعوان والانصار والاجتهاد فى انتقاء صالحي العمال لان اعمال الملك كثيرة ولا

يمكن أن يجتمع استعداد جميع الاعمال فى واحد فالوجه فى ذلك أن يكون الملك عارفا بشرائط كل عمل وباستعداد كل واحد معرفة تامة حتى يفوض الى كل عامل عملا يليق به ويشتهر بالكفاية والامانة فيه فان العامل للملك كالسلاح للمقاتل فاذا فقد الملك عمال الصدق فقد نزل به ماينزل بالمقاتل اذا بقي بلا سلاح ويجب ان يولى خيار أهل مملكته ولا يسلط على الناس جهالهم فان الجهالة قائد الضلالة والضلالة واسطة الفتنة وفى الفتنة سفك الدماء والهلكة وقد قيل

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة لمن جهالهم سادوا

ويجب عليه بعد تفويض الاعمال الى العمال المستعدين لها أن يتفقد أحوالهم فى أعمالهم ويبالغ فى تفحص أخبارهم حتى لايخفى عليه احسان من أحسن فى عمله واساءة من أساء فيه ثم لايتهاون فى تمكين المحسن وزحزحة المسيء مكافأة احسانه وإساءته ويبادر فى ذلك بحيث يبشر المحسن بعمله قبل أن يصل اليه معروفه ويفرق المسيء فى حزنه قبل أن يبتلى بعقوبته وقيل خير الملوك من يثق به البريء ولا يأمن منه المريب ويعلم أهل

الخير ان معروفه لا يصل اليهم الا بمعونة الخير ويتيقن أهل الباطل ان عقوبته ستصل اليهم بلا دافع فان ثقة البرىء تزيده اجتهاداً فى المناصحة وخوف المريب يزيده رعباً وهيبة ومع الاجتهاد بالمناصحة العافيـة ومع الرعب والهيبة الاستقامة فى الطاعـة ويجب مع ذلك أن لا تعدم على بابه الشفعاء ممن يثقل عليه ردهم وتصعب عليـه مخالفتهم حتى يمتنع عن الافراط فى التأديب المجاوز حد المساءة بشفاعتهم ويجب أن يعلم أن كل واحـد من الناس لا يخلو من عيب وفضيلة فلا يمنعه عيب رجل من الاستعانة به فيما عنده منفعة له ولا تحملته فضيلة رجل على الاستعانة به فيما لا معونة له عنده واذا عرض لبعض خدمه قاطع عن بلوغ غرض هو بصدده فلا يلزمنـه ذنب الدهر مع ثقته به فقـد يقطع الملوك القواطع عن حقوق أنفسـهم فضـلا عن أوليائهم وخدمهم . واعلم أن وجود أعوان السوء أضر عليه من فقدان أعوان الصدق ويستعين على انفاذ الامور بخلتين احداهما تألف آراء الاعوان والاخرى التثبيت فى الاداء ويجتنب من التأخير فى المهمات والتواني فيما يحدث منهما فانه ان فعل ذلك تزاحمت

عايه الامور وتراكمت عليه المهام واذا لم يكف زمانه لمباشرتها
تحير فى تدبيرها وضيع الامور بجملتها وانما الامور كلها امران
صغير لا ينبغي أن يباشره بنفسه وكبير لا ينبغي ان يكله الى غيره
فمتى باشر صغار الامور شغلته عن كبارها ومتي وكل كبارها
الى غيرها ضاع أكثر مما حفظ وافسد أكثر مما أصلح . فاذا
تراكمت الاعمال عليه فلا يلتمس التروح بمدافعتها والروغان منها
فان الصبر عليها هو الذى يحفظها عليه والضجر منها هو الذى
يزيد تزاحمها عليه فليكن معه عند ذلك رأيه الذى يختار به
الامور فيختار أولى الامور وأهمها ويشتغل به حتي يتفرغ الى
الآخر ولا يعظمن عليه فوت مافات ويؤخر مايؤخر اذا وضع
الرأى موضعه وجعل شغله فيما يجب . وليعلم الملك ان الناس على
دينه فليكن للبر والمروءة وحسن السيرة عنده نفاق (١) فانه يسد
بذلك طريق الفجور والفساد فى مملكته وليتفقد فيما يتفقد
من أمور الرعية فاقة الخاصة وليعمل فى سدها وطغيان السفلة
وليجتهد فى قمعه وليعلم انه اذا التمس رضاء جميع الناس التمس

(١) النفاق بفتح النون الرواج اه

ما لا يدرك وكيف يتفق رضاء المختلفين فى اهوائهم . وليكن أعظم مقاصده فى الولاية ثلاث خصال رضاء ربه ورضاء سلطانه ان كان فوقه سلطان ورضاء صالحي من يلى عليهم وما عليه ان يلهو عن المال والجاه والمصالح المتعلقة بهم فانه سيحصل منها مايمكن على احسن الوجوه بلا اجتهاد فى طلبه بعد رعاية هذه الخصال . وليعلم ان ماعدل به من كرامته وميله الى أهل النقص أضر به وأعجزه عن كرامة أهل الفضل وما صرف من ماله فى الباطل فقده عند ارادة الحق وماشغل من رأيه بغير المهم أزرى بالمهم . ومن الاخلاق التى يجب على الملك الرشيد أن يأخذ بها نفسه أن لا يغضب بسبب من الاسباب بل يتدرع بالحلم والوقار عند هيجان الغضب وليعلم أن الغضب مرض من أمراض القلب اذا ما عرض فسدت الآراء معه فان بلى به فلا يمضى فعلا ولا ينفذ حكماً عند غضبه . وقد جاء فى الاثر أن لا يحكم الحاكم بين اثنين وهو غضبان وقال ازدشير بن ابك ليس للشيطان فى ساعة من الدهر طمع فى القدرة على الملك أقوى منه فى ساعة الغضب وأن لا يستفزه السرور والمدح

عنده ولا تملأ البشائر قلبه لئلا ينسب الى ضعف العزيمة وصغر
الهمة ويقرر فى نفسه ان البشائر وان كثرت فهى محتقرة اذا
قيست بكبر همته وأضيفت الى عظم منزلته وأن لا تكربه النوائب
اذا ألمت ويقدم فى فكره أن الحوادث اذا طرقت والنوازل
اذا وقعت فهى سهلة فى جنب صبره وشهامته فاذا طرأ منها
حادث بان فضله على من سواه بالتحمل والصبر والمسكة عند
جزعه والوقار والاناة عند استقراره وأن لا يكون من شأنه
الفرح بالمدح والتزكية فانّ قابل المدح كمادح نفسه وان عرف
الناس ذلك منه كان ثلمة من الثلم فى عقله يقتحمون عليه منها
وبابا من الابواب يفتتحون عليه منه وغيبة يغتابونه بها ويضحكون
منها وليكن حبه للمدح هو الذى يحمله على رده فان الراد له
ممدوح والقابل له مذموم وأن لا يحزن على فوت المحبوب
أو فقد المطلوب فان الحزن مدهشة للعقل مقطعة للحيلة وثمرة
العقل أن يطرح عنه وارادت الهموم بعزائم الصبر واذا ورد
عليه محزن يقمع الحزن بالصبر ويفزع العقل للاحتيال فى تحصيل
الفائت أو المفقود ان أمكن ولا يأسف على مافاته من الثراء

[1]فان المال شبيه بالطائر ينتقل من نشز [2] الى نشز فهو عند اقباله سريع الاقبال وعند إدباره خبيث الانتقال وليس سرور يجب أن يغتبط به الملك الا سرور معه رجاء بحسن معاده أما ما سوى ذلك فهو مطروح عند ذوى الالباب لانه ليس من سرور الدنيا بشئ يؤمن عليه الآفات والغير ويهابه العقل الانسانى إلا إستصغار الدنيا وقدرها عند ما يعاين من تفتيش الآخرة ورفض مافيها من الخداع باللذات التى لاتأمن فيها من التبعات وينبغي أن يكون للملوك فى أنفسهم عبرة ليست للسوقة وهى أن يتفكروا فى سرعة انقضاء دولهم وافراط رغبتهم فى الاوزار مع القدرة عليها وفيما عرفوا من قصر استمتاع من مضوا من أمثالهم وكثرة التنغيص والعوارض فى نعمهم ودولهم وليعلموا أن أخوف الحالات لهم ماهم فيها ولا يكونوا أشد ثقة بأنفسهم وأقل ثقة بربهم اتكالا على ملكهم وجدهم فان للاعمال جزاء وللامور بغتات فيكونون على حذر منها ويسارعون فى

---

(١) الثراء بالمد كثرة المال اه

(٢) النشز بفتح فسكون وبفتحين المرتفع من الارض اه

الخيرات فربما كانت ساعة لا تعود قال حكيم خير الملوك أشكرهم لله وانقاهم من محارمه وأكثرهم تعظيما لامره واقضاهم للحقوق وارأفهم بالرعية وأبعدهم نظراً في العواقب وأخوفهم من الدوائر وأكلهم سعادة من كثر علمه ووفق للعمل به وكان فرحه بما يستوجب من الناس الشكر ومن الله المثوبة والاجر واقبح اخلاقهم الحدة وضيق الذرع وقلة الفهم وغلبة البخل والقسوة والفظاظة وقلة الاهتمام بامر الرعية . ويجب على الملك أن يأخذ للضعيف من القوى وللفقير من الغنى بحصصهما من الحق ونصيبهما من العدل وان يكون للفقير والضعيف أشد نظراً وأتم عناية وعن أمرهما اشد فحصاً لان القوى والغنى يمتنعان من الظلم والضيم بقوتهما واما الفقير والضعيف فلا يكون امتناعهما بسلطانهما وقوتهما بل تكون بمعونته اياهما وان لا يغتر بزخرف القول ورقيق الكلام فربما حضره الظالم الجاني والمداهن الخوان فسلم من سطواته وحظى من عواطفه بسحر بلاغته وافصاحه عن حجته وربما هلك لديه الامين المحق واصطلم البرئ المظلوم لعثرات لسانه وعجزه عن بيان حجته فليحتج بنفسه لمن يعجز

عن البلاغة ويقصر عن الفصاحـة . وليعلم أن سلطان ملوك الدنيا
انما هو على ابدان ماملكوا وعلى مايبدوا من ظواهر امورهم
فامانياتهم ومايغيب عنهم من امور بواطنهم فلاسبيل لهم عليه
لانه محجوب عنهم فلاينبغى لهم أن ياخذوا الرعية الا بما يظهر
لهم منهم ويتركوا التظنى فان التظنى يدعو الى التهمة والتجنى وهما
داعيان الى اللوم والشقاء وليعلموا أنهم لا يقدرون على ان لا ينطق
العامة بعيوبهم ولا يتعبون فى ان لا يبصر الناس ما فيهم من
المعائب بل يجتهدون فى ان لا يكون لهم عيب ويتجنبون عن شكاية
الناس منهم فان من لم يبال بالشكاية فقد اعترف بالدناءة ويعلمون
انه ما استصلح المستصلح غيره الا باصلاح نفسه وما افسد
المفسد غيره الا بفساد نفسه فان رغب الوالى فى اصلاح من
ولي عليـه فليبدأ باصلاح نفسـه وان أراد رفع العيوب عنهم
فليطهر أولا نفسـه منها واذا اشتبه عليه أمران ولم يدر أيهما
أصوب فلينظر الى اقربهما من هواه فليخالفه فان الهوى عدو
العقل ولا يجتمعان أبداً . وليعلم ان من الامور ما هو حذر ومنها
ماهو خور فان كان جبنه من الامر قبل مواقعته اياه فهو حذر

وان انغمس فيه ثم يهيبه فهو خور ولا يدخل في امر من الامور
الا بعد التأمل والتأني فان في ذلك انفتاح الرأى واتضاح الصواب
وقد قيل اصاب المتأمل اوكاد وأخطأ المستعجل اوكاد ولا يغرنه
المرتقى السهل اذا كان المصدر وعراً ويعلم ان اهناء الدعة ماكان
بعد احكام المهمات والله الموفق للخيرات

﴿ الفصل الثاني في آداب خدم الملوك ﴾

اعلم ان الملك لا يحتمل أحداً على غير الموافقة . وان تأكدت
حرمته وقربت ذريعته فاستشعر موافقته واتبع هواه فيما
احببت وكرهت وسلم اليه تسليم رضاء واختيار لا تسليم سخط
واضطرار وأخلص له اخلاص رهبة ورغبة فان هاتين خلتان
لا يخفيان في صاحبهما . ثم ان المنازل مشتركة عند الملك ليس أحد
أولى بمنزلة من غيره الا بلزوم الطريقة القويمة والمثابرة على
الاخلاق المرضية فتفقد نفسك واصلح مابطن منها باستشعار
الوقار والصبر والشكر والنصح وتجنب البغي والشره والحقد
وتدرع السكينة والتواضع والتودد وتنظيف الشعر والبشرة
والتزيين بأجمل ماتقدر عليه من اللباس والتعطر بأعبق مايمكنك

من الطيب فانا ربما رأينا العامة يكره بعضها من بعض المخالفة
في مثل هذا الباب فكيف بالملك الذي له القدرة وله أن
يستعمل أمثالها فاذا حضرت مجلسه فقف وقوف من لا يرى ان
الجلوس من حقه لئلا يتعلق قلبك به ولا تظهر تشوقك اليه
ولا تستبطئن الملك ان شغل عنك فيه فان أمرك بالجلوس
فاجلس معتداً من الملك ذلك نعمة لم تستحقها وكرامة لم تستوجبها
لو لا تفضله عليك بها وتطاوله بما صرف اليك منها ونظرون
سرورك بذلك وشكرك عليه مايعلم به الملك ان قدعقلت قدر
اكرامه وشكرت ما كان من إنعامه فانك ان فعلت ذلك
رآك للزيادة أهلا ووجد لك على غيرك فضلاً . ثم الزم الصمت
ملتفاً في ردائه فان اضطرك الى النطق أمر فاياك والتشدق
في الكلام فان ذلك ليس بأبلغ في الافهام وهو دليل على العي
في اللسان والقصور عن البيان بل سلم ليخبر بك وفوض الى
قريحتك فان تهيأ لك مع الهوينا صواب كان أجل لقدرك
وأجمل لفكرك . واعلم انه ليس مجلس من المجالس يجتمع فيه
من التشاجر والتحاسد مثل مايجتمع في مجلس الملك وتنافس

الناس عنده في الحظوة والمنزلة فان أعرض عنك معرض من
هذه الطبقة فاياك استعمال الاغلاط معه أو تقلد الانتصار
لنفسك منه بل اسلك به سبيل الاحتجاج أخذا بالرفق وجاذبه
أسباب الانتصاف مؤثراً للقصد . فان توجهت لك حجة فلا
تشطط بها مفتخراً ولا تعجب بها مستكبراً فيحرمك البغى
أسباب الزيادة . وان توجهت له عليك حجة فتلقها مذعناً وسلم
لصاحبها بالخضوع لئلا يجتمع عليك لصاحبها مع عدم الاصابة
قوة المؤنبين الموبخين . واعلم انه يحضر مجلس الملك أصناف من
الناس ومع كل صنف منهم نوع من أنواع الادب وكل حريص
على أن يكون استماع الملك منه واصغاؤه اليه والملك يجب أن
يجمعهم بنظره ويعمهم باقباله فان جرى في المجلس شيء لك فيه
حظ فاجر مع أهله فيه غير مرق ولا متسرع ولا مستنشط
وان كان ذلك مما لا حظ لك فيه فلا يدعونك الحسد لاهله
الى التماس صرف الملك عنهم والتكذيب لهم فان ذلك غير زائد
لك عند الملك قدرا بل هو بضد ذلك أحق وأجدر وتوق
الشرار بحضرته . واعلم ان كل شيء يجري في مجلس الملك شيء

يلزم من يراه ويسمعه كتمانه وستره خلا ما كان من مكرمة للملك يشيعها وحسنة يذيعها فان من حق خاصة الملك الذين يحضرون مجلسه ان يصفوه بأحسن صفاته لسرور الاولياء وكبت الاعداء. ثم احفظ بصرك كما تحفظ لسانك ولا تكثر التلفت يميناً وشمالاً ولا تتصفح الوجوه متفرساً متأملا ولا تعرض مافي المجلس متفكها مشرها فان ذلك كله سخف وربما وقف بصاحبه موقفاً يزل معه قدمه ويطول عليه ندمه ثم احفظ سمعك كما تحفظ بصرك فان رأيت الملك أو غيره قد اصغى بسر الى غيرك فلا تصغ اليه بسمعك ولا تحرص على استماع شيء منه فان تلك خيانة ومن خان الملك بحضرته كان فيما يغيب عنه اخون. ولتكن دار الملك دارك التي تتصرف فيها بهمك وملازمتك وتعمر مكانك منها بطاعتك ومناصحتك فان الزمت نفسك بذلك فقد زخرفتها وأعددت الملاهي فيها ودعاك ذلك الى استثقال مكانك من دار الملك فاعلم ان مكانك في أدون المنازل من دار الملك أشرف قدراً وأجل ذكراً من مكانك في أعلى المنازل من غيرها . ومن عرفه الملك يحب البعد منه

والتنحي عنه سئمه ومله وكان عليه أشد عنا. وليكن من اخلاقك التي يعرفك الملك بها الاجتهاد في الاعتذار لمن علمت ان الملك يحب ان يجدله عذراً ممن زل أو هفا من خدمه وان كان من اعدائك وترك اشهاد الفرصة عليه عند تغير الملك والمبالغة في الاحتجاج على من كان بخلاف هذه الحال عند الملك وان كان مفتاح أهل النار ويقود اليها وان الدنيا مبنية للخراب وان عمرك للخراب وجسدك للتراب وما جمعته للورثة فالنعيم لغيرك والحساب عليك والعقاب لك واللوم لك والصاحب لك في القبر العمل فحاسب نفسك قبل أن تحاسب والزم طاعتي واحذر معصيتي وارض بما آتيتك وكن من الشاكرين. ومن أذنب ذنباً وهو ضاحك أدخلته النار وهو باك ومن جلس باكياً من خشيتي أدخلته الجنة وهو ضاحك وكم من غني يتمنى الفقر يوم حسابه وكم من جبار أذله الموت وكم من حلو مرره الموت وكم من مسرور بنعمته كدرها الموت عليه وكم من فرحة اورثت حزناً طويلا ولو علمت ماتعلم البهائم من الموت لامتنعت من الاكل والشرب حتى تموت جوعاً وعطشاً . يا ابن آدم لو لم يقدر

عليك الا الموت وشدته لكان يجب عليك أن لا تهجع بالليل ولا تستقر بالنهار فكيف مابعده مما هو أشد منه . ياابن آدم اجعل سرورك بما تناله من النعيم في آخرتك وليكن أسفك على مافاتك منها وما أتاك من دنياك فلا تفرح بها ومافاتك منها فلا تأس عليه ولا تغتر بشبابك فكم من شاب قد سبقك الى الموت . ياابن آدم من التراب خلقتك والى التراب أعيدك ومن التراب أبعثك مرة أخرى فودع الدنيا وتهيأ للموت واعلم أني اذا احببت عبداً زويت الدنيا عنده واستعملته للآخرة وأريه عيوب الدنيا فيحذرها ويعمل بعمل أهل الجنة برحمتي اياه واذا أبغضت عبداً شغلته بالدنيا واستعملته بعملها فيكون من أهل النار فادخله النار بغضبي . ياابن آدم كل عمرك فانٍ وان طال والدنيا كفيء الظلال قليلا ثم تذهب فلا تعود اليك وأنا الذي خلقتك وأنا الذي رزقتك وأنا الذي أحييك . وأنا الذي أميتك وأنا الذي أبعثك وأنا الذي أحاسبك فان عملت خيراً رأيته خيراً وان عملت شراً رأيته شراً مع انك لا تملك لنفسك نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياتاً ولا نشوراً . ياابن آدم اطعني

واحذر مني ولا تهتم بالرزق فقد كفتك أمره ولا تحمل هم شيء فقد كفيت أمره. كيف تحمل هم أمر لم يقدر لك ولا تدركه كما انك لا تأخذ ثواب عمل لم تعمله. ومن كان سبيله الموت فكيف يفرح بالدنيا. ومن كان بيته القبر فكيف يسر بما يبنيه في دار الدنيا. يا ابن آدم رزق قليل وأنت شاكر خير من كثير وأنت غير شاكر. وخير مالك ما قدمته وشر مالك ما خلفته في الدنيا فقدم لنفسك خيراً تجده عندي قبل أن يأخذك لص الموت بغتة ومن كان مهموماً فأنا الذي فرجت همه ومن كان مستغفراً فأنا الذي اغفر له ومن كان تائباً فأنا الذي نهيته ومن كان عارياً فأنا الذي عريته وكسوته ومن كان خائفاً فأنا الذي اؤمن خوفه. ومن كان جائعاً فأنا الذي أشبعه واذا كان عبدي على طاعتي وأمضى أمري يسرت أمره وشددت ازره وشرحت صدره. ياموسى من استغنى بأموال الفقراء والايتام أفقرته بالدنيا وعذبته في الآخرة. ومن تجبر على الفقراء أذللته ومن بني بقوة الفقراء والضعفاء بناء عقبت بناءه الخراب وأسكنته النار (ان هذا لفي الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى)

خاتمة الطبع

اذا كانت المطبوعات من أكبر الاسباب والبواعث على تقدم الامم وترقيها وهي الواسطة في نشر العلوم والفضائل بين الناس والوسيلة الكبرى لبث الافكار النافعة والآراء الصحيحة التي يكون من وراء تعميمها تثقيف العقول وتشحيذ الاذهان لتتحد على جلب المصالح ودراء المضار . وهي مشخصات الامم وعنوانها والتي منها يستدل على اخلاقها وكنه أطوارها في كل ادوارها الاجتماعية . فمما لا خلاف فيه ان نهضة المطبوعات بيننا ترمى الى غرضين الغرض الذى يقصد به المعنى الحقيقي من نشر المطبوعات في سبيل تقدم الأمة والآخر جاء تشويشاً على الأول وعقبة في طريق سيره . فالاول ذهب فريقه الى نشر الكتب العلمية النافعة التي لايستغنى عنها بحال من الاحوال والأمة في أشد العوز والافتقار اليها فألفوا الجمعيات وتعاضدوا على

نشر المطبوعات كي تستفيد الأمة منها فائدة تنزع بها الى الغاية التى وصلت اليها بقية الامم الراقية والشعوب المتقدمة ولتكن مشخصات الأمة والدليل على كيانها في حسن سمعتها وطيب صيتها

والاخر نزع فريقه الى نشر المطبوعات الضارة بالأمة المفسدة لأخلاقها من كتب تنشر محشوة بالخرافات والاباطيل التي لا يقصد بنشرها سوى رواج تلك السلع البايرة في سوق يجب أن تطهر من تلك الادران وهاتيك المخزيات . والله يعلم ان أولئك الذين ينشرون مثل تلك المطبوعات علموا مشرب السواد الأعظم من الامة فقدموها اليه على خلو الفؤاد من أنواع العلوم والمعارف وتجرده من جميع أساليب الحكمة والصواب فصادفت قلباً خالياً فتمكنت : وقد يتعذر الآن قلع تلك الجذور من اعماق هاتيك القلوب التى ألفتها ومالت اليها على اعتبار انها من المسليات أو المضحكات لارباب الكسل وذوى البطالات . ولو انهم فعلوا ما ينفعون به لكان خيراً لهم

وياليتهم وقفوا عند هذا الحد من نشر المجون والهذيان بل تجاوزوه الى ماهو أشد ضرراً واعظم نكالا فقد استطالوا

على الاعراض ونالومن الحرمات بنشر الاهاجى الشائنة والمذام المهينة وهم بذلك لايحطون قدراً ولا يخفضون عالياً بل ان ماينشرونه هم أولى به واحق

مقالة السوء الى أهلها أسرع من منحدر سائل

ولكنهم يعلمون الناس خلقاً ذميماً ويجنون على الآداب أى جناية . ولو كانت تلك المطاعن مما يستحقه البعض جزاء تقصيرهم عن فعل الواجب وقعودهم عن الفضل لهان الامر

ولكن ماذنب من تأته تلك المذام على غير جرم ارتكبه فمن لنا بمن يحول بين الامة وبين تلك الحرية حرية المطبوعات حتى لا تكون السفاسف مشخصاتنا وحتى يستعاض عنها بالنافع

واذا كانت معذرة هؤلاء في نشراتهم مايشاهدونه في البعض من الاخلاق الفاسدة ويريدون بذلك اصلاح أخلاقهم وتطهير اعراقهم فان النجس لا يطهر بالنجس . والاخلاق لا تقوم بهجو القول وانما تصلحها العبارات الرائقة والمعاني الرقيقة من الحكمة والعظة على حسب مايقتضيه المقام وتستدعيه ضروب التخاطب في مراتب البلاغة . واذا لم يكن عن التأنيب مندوحة

فليكن كقول الشاعر العربي

لو كنت من مازن لم تستبح ابلي ‏ ‏ بنو اللقيطة من ذهل ابن شيبانا
إذاً لقام بنصري معشر خشن ‏ ‏ عند الحفيظة ان ذولوثة لانا
قوم اذا الشر أبدى ناجذيه لهم ‏ ‏ هموا اليه زرافات ووحدانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ‏ ‏ ومن اساءة أهل السوء احسانا
أما رجالي وان كانوا ذوى عدد ‏ ‏ ليسوا من الشر في شيء وان هانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته ‏ ‏ سواهموا من جميع الناس انسانا

فانظر الى هذا القول الذي بلغ منتهى البلاغة من التبكيت والتعنيف وشدة التأثير في نفس السامع وهو مع ذلك مجرد عن كل لفظ يمجه السمع عارٍ عما يوصله الى درجة الهجاء مع أنه في منتهاه فاللهم وفق الجميع الى حسن القول والعمل واجعلنا من عبادك الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه انك على ما تشاء قدير.

(عبد العليم صالح)

المحامى

